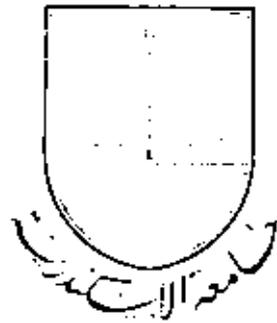


# مجلة كلية الآداب



المجلد السادس عشر

١٩٦٢

تعد هذه المجلة من كليات كلية الآداب جامعة الإسكندرية  
بالشعبتين ، وتهدف للكتابة الخاصة لتساهل في  
هيئة تحرير المجلة

مطبعة جامعة الإسكندرية

١٩٦٢



## هيئة التحرير

- الأستاذ الدكتور محمد ثابت المندي ... .. ( عميد كلية الآداب )  
الأستاذ الدكتور محمد عبد المعز نصر ... .. ( وكيل كلية الآداب )  
الأستاذة الدكتورة نور شريف ... .. ( مساعدة اللغة الانجليزية وآدابها )



# فهرس

مرفعة

فوح العرب أمغرب بين الحقبفة التاريخفة

مكفور عبد الحففة ..... ١

فربلس الشفم

مكفور حففة بف حفرف ..... ٤٣

افلاف العراففن والمفنففن فف فقفرف الصاف النبوف

مكفور عبف عبف حفرف ..... ١٢٩

الفاف الشفصف فف قفام الفرفة الصاففة

مكفور حفرف عبف عبف ..... ١٤٣

فماف الاسكفرففة الروماففة

مكفور فوفوف بف فرفف افف ..... ٢١٣

الفرفة : أفوفها وففرفها

مكفور كفف الفوف ..... ٢١٣

فارفف فماف الفوففن

مكفور عبف الفوف الفوف ..... ٢٠١

مفماف الفافرة ومفمارفها

فوفف وففرفف الفوفف ..... ٢١٧

فعبف بالفوف والفوفف الفف فمافف عبف اففمارف

مكفور فماف ففوف الفوفف ..... ٢١٣



# فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية

دراسة ونقد لمخطوط « فتوح مدينة إفريقية »  
من مخطوطات الواقدي بالمتحف البريطاني

للككتور محمد زغلول عبد الحميد

ما زالت قصة الفتح العربي للمغرب بحاجة الى المزيد من البحث والدراسة أو بالأحرى بحاجة الى ظهور المزيد من المعلومات الأكيدة أو الوثائق الحديدية . فالغموض يكتنف كثيراً من جوانبها ، والفراغ والشغرات تقطع كثيراً من أوصالها ، وفوق هذا وذلك عمرت الأسطورة والحرافة أطرافها من بدايتها الى نهايتها . وهذا الأمر ليس غريباً بالنسبة لتاريخ الفترة الأولى من صدر الدولة الإسلامية على العموم . فأخبار هذا العصر كانت تتداول - في البداية - شفاهاً . والرواية الشفوية عرضة للتحوير والتغيير ، وخاصة اذا بقيت مدة طويلة دون تسجيل . وهذا التحوير والتغيير قد يتناول قديراً ضئيلاً من الخبر انذى يظل محتفظاً بكيانه وجوهه ، وقد يتناول الخبر جميعه ليمسحه ويبدله وهنا ينتهي الأمر - مع مرور الوقت - الى أحد تقيضين : إما أن تنقب الحقيقة التاريخية الى أسطورة : وإما أن تتحول الحرافة الى حقيقة تاريخية .

والعوامل التي تؤدي الى التغيير الضئيل في الخبر أو المسخ الشامل له كثيرة . أولها حتمى صادر من طبيعة الرواية الشفوية اذ يصعب ضبطها والتحكم في صحة دقائقها عندما تنتقل من راو الى آخر . وثانيها أناني قبل نابع من طبيعة تنظيم العرب انقبيل - حينذاك - اذ تأخذ كل جماعة بالرواية التي ترضى نزعتها العصبية أو نعرتها القبلية بل وتغير فيها حتى تلائم مزعها هذا .

وثالثها سياسى يظهر بعد انتهاء فترة التكلل الأولى ، وقيام الفتنة بين العرب ، وظهور الفرق والمذاهب التى زادت فى التشتيت وأشعلت لهيب الخصومة بين الأطراف المتنازعة ، مما جعل كل فريق يبحث عن الأسانيد التى يؤكد بها أطباعه السياسية ، ويخترع لنفسه الأجداد والمفاخر ، وينسب الى خصومه الصفات والمخازى . وذهب البعض فى هذا السبيل الى حد انتحال الأحاديث النبوية -- كما نعرف . وأما رابعها فعاطفى أو انسانى يرجع الى الوضع الحديد الذى وجد العرب أنفسهم فيه بعد أن تحققت تلك الفتوح الكبرى فى ذلك الوقت القصير اذ استبدلوا ببلادهم الفقيرة البخيلة أقطاراً غنية كريمة ، وسكنوا المدن العظمى بعد أن كان كثير منهم لا يعرف الا قرى الحجاز أو واحات نجد ، ونخالطوا شعوبا وجماعات تعيش عيشة مدنية تختلف تمام الاختلاف عن حياة البادية ، وتمارس عادات وتقاليد لا يفهمها أهل الصحراء . كل هذا كان يثير -- بطبيعة الحال -- مشاعر القوم واحاسانهم ويطلق العنان لخيال كتابهم الحصب وتصوراتهم الخيالية .

هكذا ظهرت الأسطورة فى تاريخ الفترة الأولى لدولة الاسلام فى المشرق وفى المغرب على السواء . وسجلها الكتاب عندما بدأ التدوين ، وأصبحت شيئاً تقليدياً لا تخلو منه كتب المتأخرين حتى أولئك الذين عرفوا النقد التاريخى واعتنوا بصحة الأخبار . وبلغ الأمر الى أن اعتنى عدد من الكتاب بالفرائب والعجائب فكرسوا لها المصنفات . ولهذا يجد المؤرخ الحديث صعوبة كبيرة فى نقله للمراجع من وجهين : أولهما عندما يحاول التفرقة بين الأسطورة وبين الحقيقة التاريخية ، وثانيهما عندما يحاول نقد الاخبار ذات الطابع التاريخى العلمى ، والتى كثيراً ما تتضارب فى تنصيلاتهما مثل الاختلاف فى توقيت الأحداث الهامة : كالوقائع أو تأسيس العواصم المشهورة . ونكتفى هنا بالإشارة الى الاختلاف فى تحديد تاريخ وقعة القادسية

الفاصلة (١) أو وقعة أجنادين أو اليرموك (٢) وكذلك ما يروى عن فتح مصر وهل تم بعلم الخليفة أو بعز علمه (٣). وتظهر هذه الصعوبات بوضوح في التاريخ لعصر الفتح العربية في المغرب الذي يشغل القرن الهجري الأول تقريباً ، وهو موضوع بحثنا .

والمؤرخ ينزع عادة الى أحد منهجين : اما أن يضرب صفحا عن الروايات ذات الطابع الخرافي فيحطها ولا يصبح أمامه الا مهمة نقد الروايات التاريخية وترتيبها ، واما أن يهتم بالكتابين جميعاً فيحاول أيضاً نقد الأسطورة وردها الى أصلها التاريخي - ان كان لها أصل تاريخي . وهنا تصح مهمته شاقة عميرة ، وطريقه مليئة بالعقبات والمزالق . ولقد أشار الأستاذ ليفي بروفسال في دراسته لأحد النصوص التي عثر عليها والتي تعالج فتوح العرب في المغرب في القرن الأول الهجري الى الصعوبات التي يعانيها المؤرخ نتيجة لنقص المعلومات وتضاربها ثم ليلها الى الحرافقة في كثير من الأحيان (٤). وأشاد بروفسال ببعض الدراسات التي قام بها عدد من العلماء الفرنسيين

(١) أنظر المعهود ، مروج الذهب (طبعة التجارية ١٣٦٧/١٩٤٨) ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ حيث يعرض اختلافات الرواة في أمر القادسية : فإلماثي (توفي ٢٥٥/٨٣٩ م) يقول أنه في سنة ١٤ هـ ، وابن اسحق (توفي ١٥١/٧٦٨) يقول أنها في سنة ١٥ هـ ، والواقدي (ت ٢٠٧/٨٢٣) يقول أنها في سنة ١٦ هـ . ونشأ عن ذلك الاختلاف في تحديد وقت بناء البصرة والكوفة اللتين بنتا عقب القادسية .

(٢) يبلغ الاختلاف في توقيت أجنادين واليرموك الى حد أن الكتاب لا يصفون عن أيهما وقعت قبل الأخرى : انظر ابن خلدون ، طبة فاس ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ حيث يرجح رواية سيف بن عمر (توفي ١٧٠ هـ/٧٨٦) التي أخذها تطبري والتي تجعل اليرموك سنة ١٣ هـ ثم يشير الى رواية الواقدي التي تقول ان اليرموك كانت سنة ١٥ هـ . وبين ابن خلدون (ج ٢ ص ٣٣٦) اختلاف الكتاب في أجنادين واليرموك أيهما قبل الأخرى ، وازاء الاختلاف هذا اضطر الى أن يرتب الأحداث حسب القولين جميعاً .

(٣) انظر ابن عبد الحكم (طبعة ليدن) ، ص ٤٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، البلاذري ، طبة ليدن ص ٢١٢ حيث يقول « ورضي (عمرو) الى مصر من تلقاه نفسه في ثلاثة آلاف وخمسة مئتين عمر لذلك .. »

(٤) أنظر صحيفة المهدي المصري بمفريد ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ، ص ١٩٣ .

الذين اهتموا بتاريخ المغرب مثل وليم مارسيه (Marçais) وجورج مارسيه وبيرونشفيج (Brunchvig) وجاتو (Gateau) كما أشار الى المقدمة التاريخية الخاصة بفتح المغرب في كتاب رياض النفوس الذي حققه الدكتور حسين مؤنس . ويخلص بروفنسال الى أنه من الصعب كتابة تاريخ فتح العرب للمغرب بالتفصيل ، وأن بعض الكتابات القيمة هي التي حددت معالم هذه الفترة على وجه الاحمال أو عالجت بعض النقاط فقط (١) . وربما كان هذا الرأي صحيحاً الى حد كبير اذ هو ينطبق عندما على بحث الدكتور حسين مؤنس عن « فتح العرب للمغرب » فقد تعرض مؤنس للموضوع بشكل مستفيض ، ونظر في مراجعه ، وحاول نقد كل الروايات ونجح في ذلك ولكن انعمرت الخطوط العريضة للموضوع وسط سيل التخصيلات التي تتناقض في كثير الأحيان (٢) . وعلى العكس من ذلك ظهرت هذه الخطوط واضحة جلية عندما لخص هذا البحث في صفحات قليلة جعلها مقدمة لفتح الأندلس في كتابه عن « فجر الأندلس » (٣) .

ونريد أن نخرج من هذا بالتماس العذر للدكتور حسن أحمد محمود الذي تعرض في بحثه القيم عن « قيام دولة المرابطين » لفتح العربي للمغرب فوقع في حيرة أمام اختلاف الروايات فروى ما يفهم منه أن عقبة بن نافع استشهد في المغرب الأقصى اذ يقول بعد مقتله : « ورحف كسيلة الى الشرق متجاوزا المغرب الأقصى وانقض على افريقية » (٤) . ومنها الحيرة في ترتيب المراحل الكبيرة للفتح ، والحيرة أمام اختلاف الروايات عن أعمال كبار القادة : فهو يقدم حسان بن النعمان على زهير بن قيس البلوي ، وينسب اليه أنه « لم يستطع أن يهزم كسيلة نهائياً ، إنما أقصاه عن الصروان » . وهو لا يذكر ما كان من أمر حسان

(١) أنظر صحيفة المعهد العربي بمقريه ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، مجلد الثاني ، ١٩٥٤ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

(٣) أنظر حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣١ - ٤٩ .

(٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦٣ .

والكاهنة (١) . ثم يقول بعد ذلك ان زهيراً قتل كسيلة عند ممس ، ولكنه يذكر أن « العرب أمعنوا في تعقب البربر المهزومين حتى وادى ملوية بل أوغلو حتى طنجة » (٢) . والمعروف أن زهيراً عاد ادراجة نحو المشرق بعد قتله لكسيلة وأنه استشهد على سواحل برقة (٣) . والسبب فيما وقع فيه الدكتور حسن محمود هو أنه أخذ من بعض المصادر المهمة - رغم أنها متأخرة بعض الشيء - مثل بيان ابن عذاري ورياض المالكى التي يذكرها في الهوامش ، ولكن دون أن يقابلها ببعضها البعض أو يعرضها للنقد . والحقيقة أن الرجوع مباشرة الى مصادر فتح المغرب - ولانستى من ذلك أمهات هذه المصادر مثل كتاب ابن عبد الحكم الذى يقدم حسان بن النعمان في بعض أبوابه على زهير بن قيس (٤) - دون الاستفادة من الدراسات النقدية الحديثة يعتبر مغامرة قد لا تحمد مغبتها : وذلك للأسباب التي ذكرناها ابتداء من نقص المعلومات وتضاربها وكثرة الأساطير .

وهذه الأسباب هي التي جعلتنا نختار « فتح المغرب بين الأسطورة والحقيقة التاريخية » موضوعاً لهذا البحث . أما عن مادة البحث الأولى فمخطوط اطلعنا عليه بالمتحف البريطانى يحمل عنوان « فتوح مدينة أفريقية » ولا يحمل اسم المؤلف وهو منسوب في فهرس المتحف (القسم العربى ، رقم Add.9572) للواقدي . وهذه النسخة ليست وحيدة فهناك نسخ أخرى يذكرها بروكلمان في مكنتيات ليدن وباريز وكامبريدج والجزائر وفاس (٥) . وأكثر من ذلك أن « فتوح أفريقية » هذه طبعت في تونس منذ حوالى

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٢٨ ، بروفسان ، صحيفة المهدي انصرى بمغريد ، ٩٥٤ ، ص ٢١١ والهوامش .

(٤) انظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٢ حيث يروى قصة مقتل زهير بن قيس في انطابلس (برقة) بعد أن روى من قبل قصة انتصارات حسان على الكاهنة (ص ٢٠٠ - ٢٠١) . وهو يحدد مقتل زهير على هذا الأساس بسنة ٧٦ هـ (ص ٢٠٣) أي أيام حسان بن النعمان .

(٥) أنظر : Brockelmann, G. A. L., supp. I p. 208 .

خمة وستين عاما (١٣١٥ هـ) بمعرفة عبد الرحمن الصنادل تحت عنوان «فتوح افريقية للامام العلامة الخبير الفهامة سيدي محمد الواقدي رحمه الله تعالى». وطبعة تونس هذه في جزئين كل منهما في حوالي ١٥٠ صفحة، والمخطوط يعادل الجزء الأول منها. وهذه الطبعة نادرة الآن فهي لا توجد في دار الكتب أو في مكتبة جامعة القاهرة، وعلى ذلك يمكن القول إنها أشبه بالمخطوط. وهي في الحقيقة كذلك: فناشرها لا يذكر الأصل الذي نقل عنه كما أنه لا يحققها ولا يزودها بمقدمة من عنده ولا بالهوامش اللازمة حتى ظلت بكرة على حالتها الأولى. ونحن نلتصم العذر للصنادل فتحقيق مثل هذا المخطوط أمر صعب إن لم يكن مستحيلا، وذلك أن القصص والأماطير تغلب فيه على التاريخ الحقيقي. وربما كان هذا هو السبب الذي دعا المهتمين بتاريخ المغرب من المستشرقين والعرب إلى إهمال هذا الكتاب إهمالا تاما، فلم يشيروا إليه في تقديم للمصادر بل ولم يذكروه فيها ذيلوا به أمثالهم من ثبت للمراجع. فدوزي وبيروفنسك وماوسيه وبرونشفج ومونس وغيرهم لا يذكرونه في المراجع وإن كان مؤنس يشير إليه في فصل المصادر عندما يتقد التويري (ص ٣١٠) وفي أحد الهوامش الخاصة بحملة ابن أبي سرح (ص ٩٠ هامش ٣). وهذا يدعو إلى التساؤل عما إذا كانوا يعرفونه أم لا. ونظن أن بعضهم على الأقل كان يعرف «فتوح افريقية»، ويجوز أن طبيعة الرواية الأسطورية وصعوبة تحقيقها هي التي زهدتهم في التعرض له.

و نحن لا ندعي أننا سنحقق الكتاب - فهذا أمر صعب - ولكننا سنحاول أن نتعرض له بالدراسة والنقد في محاولة تهدف إلى تبيان أصوله التاريخية، وكيف تحولت الحقائق التاريخية في هذه الرواية إلى أماطير أو العكس. وتحديد عملنا بهذا الشكل يفسر كيف أننا اقتصرنا على دراسة مخطوط المتحف البريطاني مع مقابله بطبعة تونس. ولكننا لم نكتف بهذا التحديد إذ لما كان فتح المغرب استمرارا لفتح مصر فقد رأينا أن نتعرض لفتح مصر للواقدي وهو القسم الثاني من مخطوط «فتوح الشام ومصر» بالمتحف البريطاني أيضا (القسم العربي رقم Add. 7361) وهذا القسم نشر سنة ١٨٢٥ في ليدن بمعرفة هنريك آرنه همبر تحت عنوان «كتاب فتوح مصر والاسكندرية

المنسوب الى المؤلف الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني . وطبعة ليدن أكثر تمصيصاً من مخطوط المتحف البريطاني ، وينطبق عليها ما قلناه على طبعة « فتوح افريقية » من حيث الندرة وبقاء النص على حاله الأولى كالمخطوط تماماً . هذا ونظرنا في « فتح البهجة وفيوم من أرض مصر » للواقدي كذلك ، وهو مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن ، وملحق بمخطوط لتاريخ أبي النداء (النسم العربي رقم ٢٦٣٨٦) . ولقد طبع هذا الكتاب سنة ١٢٨٠ هـ بالقاهرة تحت عنوان « فتوح البهجة وما فيها من العجائب والغرائب وما وقع فيها من مصحابة » بمعرفة حسين الخشاب . ويذكر أنه للشيخ محمد بن المعز . والظاهر أن صحة الاسم الأخير هذا هو « محمد بن محمد المقرئ » كما هو مذكور في المخطوط (١) . ونظن أنه واقدي آخر غير صاحب المغازي اذ يلقبه المصنف أو الناسخ « بالواقدي المحدث المصري » (٢) كما في المطبوع أيضاً (٣) . والمطبوع هنا لا يختلف عن المخطوط من حيث عدم التحقيق وبقاء النص دون نقد أو تعريف .

والحقيقة أن القرابة قريبة بين المخطوطات والكتب الثلاث كما سنرى . وسنشير الى فتوح الأندلس التي هي استمرار لفتوح المغرب ، ونكتفي بذكر عنوان كتاب ابن عبد الحكم « فتوح مصر والمغرب والأندلس » لتتبدل على ما بين قصة فتوح البلدان الثلاثة من علاقة وثيقة .

ورواية ابن عبد الحكم (توفي في مصر سنة ٢٥٧/٨٧١) هي أقدم رواية كاملة وصلت اليها عن فتح المغرب . . وهي تمثل الرواية الشرقية لقصة الفتح رغم أن ابن عبد الحكم مصري ، ومصر كانت قاعدة فتح المغرب كما كانت عاصمته عقب الفتح . وكانت الفسطاط تنخر بالرسائل

(١) فتح البهجة وفيوم ، مخطوط مدرسة الدراسات الشرقية بلندن ، انسم العربي ٢٦٣٨٦ ص ١٠٢ ، وأنظر : Brockelmann, G. A. L., I, P. 142  
(٢) نفس المخطوط ، ص ١٠٨ .  
(٣) فتوح البهجة وما فيها من العجائب ، طبعة ١٢٨٠ هـ ، ص ١٩ وفتح .

والسجلات الرسمية الخاصة بفتح مصر والمغرب . فضل بن عبد الحكم عن كثير من المشايخ الذين رأوا هذه السجلات أو نسخوها قبل احتراق ديوان القسطنطينية (١) . وإلى جانب ذلك دون بعض المعلومات المأخوذة من الروايات الشعبية التي تداولها أهل مصر . وعلى الجملة كان ابن عبد الحكم . . بفضل أسرته التي شاركت في أحداث مصر مشاركة فعلية - في موقف يسمح له بالكتابة المفصلة عن فتح مصر والمغرب والاندلس ، وعن الخطط والتنظيم الإداري في مصر ، بشكل لم يسبقه إليه أحد من الكتاب . وهو هنا له حتى الأولوية على المقرئ صاحب الخطوط .

والواقدي أقدم من ابن عبد الحكم بحوالي جيلين (توفى ببغداد سنة ٢٠٦/٨٢١) ، وله عدد من المؤلفات في الفتوح والمغازي مثل مغازي الرسول ، وفتوح الشام ، وفتوح مصر ، وفتوح إفريقية . . الخ . . وعلى ذلك يمكن اعتباره ممثل ذلك النوع من الأدب التاريخي الذي بدأه ابن إسحق (توفى ١٥١/٧٦٨) صاحب السيرة . ولكن مؤلفات الواقدي لم تصل إلينا جميعاً ، والذي ثبت نسبه إليه هي «مغازي الرسول» بينما يشك في أن تكون «فتوح الشام» له . وما عدا ذلك مما وصل إلينا مستقلاً أو منقولاً في كتب المتأخرين فيشك في أصالته ، بل وفي صحة نسبه إليه . وإلى جانب الواقدي وابن عبد الحكم يأتي البلاذري (توفى سنة ٢٧٩/٨٩٢) وهو محدث مؤرخ في روايته مثلها .

ويقع مخطوط «فتوح مدينة إفريقية» الذي اتخذناه محور البحث في ٨٦ (ست وثمانين) ورقة من القطع المتوسط (4 in) ، وهو بخط مغربي جميل ، مكتوب بالخط الأسود بينما العنوان والكلمات الواقعة في أوائل الجمل مكتوبة بالخط الأحمر . وتبدأ خطبة الكتاب هكذا :

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٩ . ويلاحظ هنا أن طيبة ليدن تقول : «ذكر بعض المشايخ المتقدمين أنه نظر في بعض الدواوين بالقسطنطينية وقرأه قبل أن يتحرق فإذا هو يحفظ منه . . . فأنبت الناشر كلمة يتحرق بدلاً من يحرق التي قرأناها في مخطوط المتحف البريطاني (القسم العربي) رقم (6. Stoue, or .) ص ٧٢ وجه . هذا وأثبت الناشر أن مخطوط لندن يحمل كلمة يحرق ولكنه لم يقرأها يحرق .

« الحمد لله المنعم فضلا من عنده . المحسن بما لا يحصى .. أما بعد فحمد  
(حمد؟) الله على فضله والصلوة والسلام على سيدنا محمد ، فإني قصدت  
في هذا المختصر [وجه الله؟] والبركة بفضل الله وحسن عونه ، فتوح  
أفريقية من المدينة (المهدية؟) إلى أقصا المغرب - انشاء الله تعالى - بما استفتحه  
أبناء أولادهم (أولادهم ونظن أن المقصود الصحابة؟) - رضى الله عنهم  
أجمعين في زمان عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ، وأمر عليهم عقبة بن عامر  
صحب (صاحب) رسول الله - صلى الله عليه وسلم ... »

قال المؤلف - رحمه الله تعالى ورضى الله تعالى عنه - : لما خرج عقبه  
بن عامر (١) ... الخ . وينتهي الكتاب هكذا :

« انتهى كتب (كتاب) الغزوات . اللهم (اللهم) بجاه أهله (بجاهك؟)  
وبمحمد الجليل تمح (تمحو) عن كاتبه السيئات وتضعف (وتضعف؟)  
له الحسنات (الحسنات) بحق هذه السادات (السادات) . . . وهو لا يحمل تاريخ  
النسخ ولا اسم الناسخ ، ونظن أنه حديث (٢) .

وتكثر الأخطاء اللغوية والاملائية بالمخطوط - كما نرى - ؛ والظاهر  
أن مرجع ذلك إلى الناسخ أو النساخ المتعاقبين الذين لم يكونوا متمكنين من  
اللغة العربية . ويحتوى الكتاب المخطوط على الفصول العشرة الآتية :

(١) تختلف نسخة طبعة تونس (ج ٢ ص ١٠) عن هذه النسخة تبدأ هكذا : « الحمد لله  
المزده عن الظير والقرين ، المقدس عن الوزير والمعين ، المبرأ عن الزوج والبنات واليهين ...  
وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له والنبي هداانا الى الانسلام والدين ، وأشهد أن سيدنا  
محمد عبده ورسوله .. الخ ... »

(٢) وتنتهى نسخة تونس (ج ٢ ص ١٤٨) هكذا : « انتهى الحمد لله الذى أيد دينه وبعد فقد  
تم بمون العناية الالهية طبع فتوح أفريقية المنسوب للإمام الراقدي أحد الجهابذة الاعلام .. قدونك  
سفرنا أسفرت الكواكب مياييه وأينمت الحدائق معانيه .. أماط اقتناع عن محاسن تلك الافتوحات  
الشريفة وأذاض الاعلام على عجائب هاتيك الغزوات المنيفة .. وقد كان قبلا لا يوجد منه اسمه ولا ينال  
ناشده رحمه حتى يسر الله له باعانة الأعران وأصدقائه الجلان - لا عدت غيرهم الأوطان -  
جمع ما تشئت من نسخه في أدنى وأقصى البلدان .. (ولكنه لم يذكر النسخ التي استعملها) .

- ١ - - بناء القيروان : ص ٢ وجه - ٢ خلف  
(طبعة تونس - ج ١ ص ٣)
- ٢ - فتح المهديّة : ص ٢ خلف - ٢١ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٣)
- ٣ - فتح مدينة موسى : ص ٢١ خلف - ٢٩ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٢٩)
- ٤ - فتوح مدينة سببية : ص ٢٩ وجه - ٥٩ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٤١)
- ٥ - فتوح مدينة شقينار [ب] : ص ٦٠ خلف - ٦٣ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٩٠)
- ٦ - فتوح مدينة حيدرة ٢ : ص ٦٣ خلف - ٦٩ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٩٦)
- ٧ - فتوح مدينة قسطنطينية (١) : ص ٦٩ وجه - ٧١ خلف  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١٠٤)
- ٨ - فتوح مدينة نيسة (٢) : ص ٧١ خلف - ٧٥ خلف  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١٠٦)
- ٩ - فتوح مدينة قسنطينة (٣) : ص ٥٧ خلف - ٧٧ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١١٤)
- ١٠ - فتح المعلقة ؟ : ص ٧٧ وجه - ٨٦ خلف  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١٢٠).

(١) المخرط : قسطنطينية ؛ طبعة تونس : قسطنطينية .

(٢) المخرط : نيس .

(٣) المخرط : قسنطينة .

وينبغي أن نسرّع بتسجيل أول ملاحظة وهي أن الناظر في هذا الكتاب ليس بحاجة إلى كثير تأمل لكي يقرر أن الصفة العلمية تكاد تسمى منه : فالأسطورة هي الغالبة عليه ، وهي تحمل في ثناياها في كثير من الأحيان نواة حقيقية تاريخية ، أو تعبيراً عن اتجاه سياسي أو فكري معين ، وقد تكون في آخر الأمر من ذلك النقص الشعبي ( الفلكلور ) الذي له مغزاه الخاص . وهذا ما نأمل أن نوضحه في هذا البحث إلى جانب الإشارة إلى بعض ما يحتويه الكتاب من النصوص ذات الأهمية العلمية الحالية .

ومخطوط «فتح البهنة» فيوم من إقليم مصر» المنسوب للواقدي «المصري» له أهمية خاصة في هذا المقام . فهو يبين مرحلة متوسطة من مراحل تطور الخبر التاريخي إلى رواية قصصية أو أسطورة شعبية . فالكتاب يذكر - بعد اسم المؤلف وصفة البهنة وتاريخها القديم (١) - مصادر أخرى لروايته مثل المسعودي والطبري والواقدي وابن اسحق وابن هشام وأصحاب السير والتفسير (٢) وابن خلكان (٣) . ثم تبدأ رواية الواقدي «المصري» متأخرة بعد ذلك ، فيقول :

« انني اطلعت على فتوحات كثيرة فوجدت فيها زيادة ونقصان ، ولكن آخذ ما هو الصدق . وقد قررت فضائل البهنة قرأيت أن من زار جبانها تمحى عنه الذنوب ، وتكشف عنه الكروب .. لما فيها من السادات والشهداء ممن باعوا أرواحهم ابتغاء مرضات (مرضاه) الله ، وقتلوا في سبيله .. قال فخرجت ناويا زيارتها في بعض الأيام أنا وبعض من الأصحاب (٤) .. فسألني بعض الأحناب عن سبب فتح مدينة البهنة لندفع البؤس والأسا . فحرك لذلك خاطرى حتى أسهرت ناظرى ، وطلعت تلك التواريخ والفتوحات حتى انتخبت هذا الكتاب . فهو كالدرة القيمة التي لا يعرف لها قيمة ، تترأس عند جماعه النفوس ، ويزول الهم والعكوس ، ويشجع على الجهاد ، ويعين على إقامة العدل في البلاد » .

(١) المخطوط ، ص ١٠٢ رجه .

(٢) المخطوط ، ص ١٠٤ خلف .

(٣) المخطوط ، ص ١٠٨ خلف .

(٤) هذه الجملة توضح أن مؤلف الكتاب مصرى وأنه سكن البهنة أوزارها على الأقل . وهذا ما لم يعرف عن الواقدي صاحب المغازي .

وخطبة الواقدى هذه تبين أن الغرض من تأليف الكتاب هو ذكر مناقب الهنسة بذكر أبطال الصحابة وأبنائهم الذين فتحوها غزواتهم صاروا المثل الأعلى لأهل الورع والتقوى . ولهذا يحتم المؤلف الكتاب بقوله إن الهنسة صارت محجة كبار الصوفية من المشرق مثل : بشر الخاقى (١) والبرى السقطى (٢) ، ومالك بن دينار (٣) ، والحفيد (٤) ، ومن المغرب مثل : سيدى أبى مدين شعيب (٥) ، وسيدى أبى الحجاج الأقمصرى (٦) . فالغاية إذن هى العمل على نشر روح الجهاد ، والحث على إقامة سلطان العدل .

وضع فاتحة الكتاب فى موضعها المتأخر هذا يبين كيف تصرف الناقل فى الكتاب فأضاف إليه ، وربما حذف منه مع احتفاظه بنسبته الى «الواقدى» . والناقل أو صاحب الكتاب فى شكله الجديد لا يذكر اسمه ولا يعرفنا بنفسه .

---

(١) أبو نصر بشر بن الحادث المعروف بالحاقى ، الروزى الأصل والمتوفى ببغداد سنة ٢٢٧ هـ ٨٤٢ م . وهو من كبار الصالحين . كان له اتصال بالواقدى وروى عنه (أنظر ابن خلكان ، الواقدى ؛ أنظر طبقات الشعراء ، طبعة ١٣٤٢ ، بشر الخاقى ، ج ١ ص ٦٢) .

(٢) أبو الحسن البرى المنلى السقطى ، خال الحفيد وأستاذه . من أشهر أهل الورع ببغداد ومن أصحاب معروف الكرخى . مات ببغداد سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م . من مبادئه عدم قبول الصدقة (أنظر طبقات الشعراء ، ج ١ ص ٦٣ - ٦٤) .

(٣) أبو جوى مالك بن دينار البصرى ، الزاهد المشهور . عرف بالورع والزهد وكان يتكسب من كتابة المصاحف ، وكان لا يأكل الا من عمل يده . توفى بالبصرة سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م (ابن خلكان ، مالك بن ابى دينار ، طبقات الشعراء ، ج ١ ص ٣٢) .

(٤) أبو القاسم الحفيد بن محمد يعرف بالزجاج وبالقواريرى ، أشهر صوفية ببغداد ولذلك يلتقب بسيد الطائفة . أصله من هبارند ولكنه ولد ونشأ بالعراق ، وصحب بحاله البرى السقطى . توفى ببغداد سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م (طبقات الشعراء ، ج ١ ص ٧٢) .

(٥) أبو مدين شعيب صوفى المغرب المشهور ، ودفن بلمسان بالجزائر سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ (طبقات الشعراء ، ج ١ ص ١٣٣) .

(٦) أبو الحجاج الأقمصرى ، شيخ مدينة الأقمصر ودفن فيها . من أجل أصحاب طريقة سيدى أبى مدين ، وتلميذ سيدى عبد الرزاق الاسكندرى - توفى سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ (طبقات الشعراء ، ج ١ ص ١٣٦) .

وكل ما عرفناه - كما في الخطبة - أنه كان بالهينة مقبياً أو زائراً ، وأنه مصري كما يلقب . والظاهر أنه أعطى نفسه لقب الراوى : فكثير من الأخبار تبدأ بكلمتي « قال الراوى » (١) . ويتأكد ذلك عندما يذكر « قال الراوى » : « أنا ما أخذت في هذا الفتح الذي لا يجمع مثله الاعلى قاعدة الصدق » (٢) . هذا رغم ما يظهر « الراوى » في بعض الأحيان ، وكأنه شخص قديم عاش بعد الفتح بقليل كما نقرأ : « قال الراوى عن زيد بن غانم ، وكان ممن حضر الفتح » (٣) . وهذا يرجع الى حذف بقية الاسناد والاكتفاء بالتمن منسوباً الى راويه الأول .

أما عن « الواقدي » فالى جانب ذكره بصفته المؤلف في الخطبة ، فان كلمتي « قال الواقدي » لم تردا الا مرات معدودات (٤) . ويتضح من سياق الكلام أن الواقدي المقصود حيثك هو محمد بن عمر صاحب المغازي ، وليس « الواقدي » المحدث المصري . والى جانب « الراوى » و « الواقدي » نجد كثيراً من الأخبار مسبوقه برواتها القديما على طريقة المحدثين وقدايم مؤرخين - دون ذكر المرجع الذي نقل عنه . ومن هؤلاء زيد بن غانم وابن سلعة الانصارى (٥) ، وقيس بن الحارث (٦) . ومنهم عبد الله

(١) انظر المخطوط من ١٠٣ وجه ١١٠٠ وجه ، ١١٢ خلف ، ١٢٠ وجه ، ١٢١ وجه ١٢٢ وجه ... الخ .

(٢) المخطوط ، من ١٢١ وجه .

(٣) المخطوط ، من ١١٢ خلف .

(٤) المخطوط ، من ١٠٨ خلف ، ١١٤ خلف ، ١٢١ وجه .

(٥) محمد بن سلعة بن سلبة . الانصارى ، الصحابي المشهور . شهده بدر واشترك في فتح مصر . توفي سنة ٤٦/٤٦٦ . وابن عبد الحكم يذكره كثيراً ، ولكنه لا يضعه ضمن رواياته (تتوج مصر ، طبعة ايدن ، ص ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٤٦) ، وانظر الاصابة لمسقلاني ، رقم ٧٨٠٦ .

(٦) ربما كان المقصود هو قيس بن الحارث بن يزيد بن شبل بن حبان الذي يذكره ابن سعد من الواقدي (الاصابة لمسقلاني ، رقم ٧١٥١) وربما كان المقصود قيس بن حارث صاحب عمرو الذي ينسب اليه فتح الفيوم ، كما نسب قرية القيس اليه (ابن عبد الحكم ، ص ١٢٩) .

بن زيد (١) الذي يروى عن أبي أمامة الانصاري (٢) . وهذان الأخيران من رواية الواقدي كما ينص على ذلك فيما بعد (٣) . ومنهم سعيد ٢ (٤) ، وحصان بن ثابت (٥) ، ورافع بن مالك (٦) ، وغنم البربوعي (٧) ، وأوس بن

(١) نقل أنه عبد الله بن زيد بن ثعلبة الانصاري ، المتوفى سنة ٣٢ هـ . وابنه محمد يروى عنه (الاصابة ، رقم ٤٦٨٦) . ويمكن أن يكون عبد الله بن زيد بن عاصم المازني المتوفى سنة ٩٣ هـ (الاصابة ، رقم ٤٦٨٨) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، طبعة القاهرة ١٣٥٠ ، ج ١ ص ٧١) .  
(٢) أبو أمامة أسعد بن زراره الصحابي المشهور ، أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة . توفي قبل بدر (ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ص ٧٧ ، ص ١٠٠) . وهو غير أبي أمامة اليافعي واسمه صدى بن عجلان ، الذي عاش إلى أيام التوليد بن عبد الملك (ابن هشام ، ج ٢ ص ٢٩٥ ، الأخبار الطوال لديتروي ، طبعة ادارة الثقافة ، ص ٣٢٨)

(٣) المخطوط ، ص ١٤١ وجه .

(٤) المخطوط ، ص ١٢١ خلف . ولا تعرف أي سعيد المقصود : سعيد بن يزيد بن عمرو بن قنبل الذي يذكره الواقدي في مغازيه (طبعة كلكتة ، ص ١٢ ، البشاري ، طبعة القاهرة ١٣١١ هـ ، كتاب الصلاة ، ج ١ ص ٨٦) أو سعيد بن المسيب الذي يذكره الواقدي أيضا (ص ٩٨ ، ٣٩٢) ، أو غيرهما ممن يذكرهم البخاري مثل سعيد بن جبير (باب منه الوحي ، ج ١ ص ٨) ، أو سعيد بن يحيى بن سعيد القرشي (باب أي الاسلام أفضل ، ج ١ ص ١١) ، أو سعيد بن عمرو (باب غزوة بدر ج ٥ ص ٧٦) ، أو سعيد بن عفير رواية من الذي يروى عن الليث بن سعد نقيه مصر وروايتها المتوفى ، سنة ١٧٥ هـ (ج ٥ ص ١٥٣) ، أو غير هؤلاء جميعا ممن يذكرهم الكتاب .

(٥) المخطوط ص ١٢٤ خلف . حصان بن ثابت شاعر الذي انضم للمؤمنين سنة ٦٧٤/٥٤ هـ . كان رواية هو وابنه عبد الرحمن بن حصان بن ثابت ، وامرأته سيرين (أنظر ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٤٧) .

(٦) المخطوط ، ص ١٢١ خلف . نعتقد أنه رافع بن مالك بن النجاشي الخوارجي الانصاري وكان من تلقاها. الأثر عشر بعد بيعة العقبة (ابن هشام ، السيرة ، طبعة القاهرة ١٩٣٦ ، ج ٢ ص ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨) ، وأنظر الاصابة لمسلك ، رقم ٢٥٤٤) . وهو وابنه وقاه بن رافع بن مالك ، وحفيده معاذ بن رفاعه معدودون من رواة البخاري (كتاب الصلاة ، ج ٥ ص ٨١) .

(٧) المخطوط ، ص ١٢٤ خلف ولم نجد في منزه الواقدي الا محمد بن عثمان انيربومر (ص ١٤٠) .

المقداد (١) ، وعلقمة بن سنان ، وزيد بن رافع (٢) ، وهيار بن سفيان (٣) وكثيرون غير هؤلاء (٤) . وآخرهم جعفر بن مسعود البدرى الذى أخذ رواية الشيخ أبى عبد الله المدنى ، الذى كان يقرئ هذا الفتح بالجامع الغربى العمري بشفر الاسكندرية (٥) .

ولا يذنبى أن نمدح بتلك الأسانيد ، وهؤلاء الرواة . فالمصنف لم يبق عليها الا يعطى روايته - التى غلبت عليها الأسطورة - نوعاً من الأصالة ، وظلاً من الحقيقة التاريخية .

وقصة فتح اقليم الفيوم هنا تقع فى حوالى مائة صفحة من الحجم الكبير (فى كل صفحة ٢٦ سطراً وفى كل سطر حوالى ١٧ كلمة) . فإذا ما علمنا أن فتح الفيوم يعتبر من النقاط الغامضة فى فتح مصر حتى قال ابن عبدالحكم - ونقل

---

(١) المخطوط ، ص ١٢٦ وجه . لم نعثر على أوس بن المقداد . ولا نعرف ان كان المقصود بالمقداد هنا هو المقداد ابن الأسود بطل بدر المشهور المتوفى سنة ٣٣ هـ (البخارى ، باب بدر ، ج ٥ ص ٧٣) ، أو المقداد بن عمرو الكنى (ج ٥ ص ٨٥) .

(٢) المخطوط ، ص ١٢٦ وجه ، لم نستطع التعرف على شخصيهما . وربما فى الاصابة لمسفلاني ، زيد بن غاضب ابن أمية بن رافع الأنصارى وربما كان هو المقصود اذ يذكر ابن حجر أن التواترى قال أنه شهد أحداً ويرجح (الاصابة رقم ٢٨٩١) .

(٣) هيار بن سفيان (المخطوط : ابن ابى سفيان) بن عبد الأسد بن هلال الخزومى ، شهيد اجنادين أو اليرموك على ما يظن (أنظر ابن حجر ، الاصابة ، رقم ٨٩٣٠) .

(٤) مثل مسلمة بن هشام الخزومى (١٢٩ وجه) ، وأمر محمد البدرى ، وأبو العلاء المحمدي وشداد بن أوس (ص ١٣٧ وجه ، ١٤٤ وجه) . والآخر منهم معروف وهو شداد بن أوس الأنصارى وهو ابن أسى - سان بن ثابت . فزل بيت المقدس ، وتوفى سنة ٥٨ هـ فى نفس السنة التى توفى فيها عقبة بن عامر الجهنى الصحابى (شذرات الذهب ، ج ١ ص ٦٤ ، ابن حجر ، الاصابة رقم ٣٨٤٧) . ومنهم جابر بن سنان ونظن أنه جابر بن عبد الله بن رقيب بن السنان بن سنان... الأنصارى أحد الستة الذين شهدوا الحجة الأولى مع رافع بن مالك وعقبة بن عامر بن زيد (الاصابة لمسفلاني ، رقم ١٠٢٥) وعمر بن عقبة نظن أن المقصود به عقبة بن عامر سابق الذكر ، وربما كان المقصود هو عقبة ابن عامر الجهنى الذى دخل مصر مع عمرو ، وتآلت فيه ولايتها أيام معاوية (ابن حجر ، الاصابة رقم ٥٦٠١) .

(٥) المخطوط ، ص ١٤٤ وجه .

عنه الكتاب فيما بعد - إن العرب ظلوا ما يقرب من العام وهم لا يعرفون موضع الفيوم . وإذا ما عرفنا أن ابن عبد الحكم - على استفاضة وكثرة رواياته - لم يخصص لفتح الاقليم الا أقل من الصفحة الواحدة (١) ، تؤكد لنا اصطناع هذه الرواية الغربية ، وحق لنا أن نتساءل متى ومن أين أتت؟ والخطوط العريضة لهذه الرواية العجيبة تتلخص في أن بطل الفتح هو خالد بن الوليد - اذ تزعم أنه كان شريك عمرو بن العاص في قيادة القوات العربية عصر (٢) . وأن الهاشميين - وخاصة الفضل بن العباس ، وعبد الله وجعفر ومسلم وعلى أولاد عقيل - قاموا ببلور أساسى في هذا الفتح (٣) ، وكذلك الزبير (٤) ، وعبد الرحمن بن أبى بكر (٥) ، ومالك الأشتر (٦) . والرواية تقصد هنا الطالبين أو العلويين وأنصارهم ثم عبد الله بن عمر (٧) ، وسليمان ابن خالد بن الوليد (٨) .

والى جانب هؤلاء هناك ذكر لعقبة بن عامر الجهنى (٩) ، وعقبة بن نافع النهري (١٠) ، والمغيرة بن شعبة - وله دور أشبه بدوره الذى قام به أيام فتح فارس عندما سار سفيراً عن العرب لدى رسم كما تزعم هذه القصة (١١) . وسنترك الاشارة الى الأدوار المدهشة التى قاموا بها الى حين الكلام عن فتح المغرب .

- 
- (١) ابن عبد الحكم ، توح مصر والمغرب (فتح الفيوم) ، ص ١٦٩ .  
(٢) مخطوط فتح الهند ، ص ١٠٩ خلف ص ١١٥ وجه وخلف ، ص ١١٣ وجه وفى ص ١١٥ خلف (عمرو هو متولى الأمور وخاله قائد الجيوش) ؛ انظر طبعة القاهرة ، ص ٢٥ وتابع .  
(٣) نفس المخطوط ، ص ١١٠ خلف ، ص ١١٣ وجه ، ص ١١٥ وجه ، ص ١٣٣ وجه ، ص ١٣٥ ، ص ١٤٦ .  
(٤) نفس المخطوط ، ص ١١٥ وجه ، ص ١٢١ خلف .  
(٥) نفس المخطوط ، ص ١١٦ وجه وخلف .  
(٦) نفس المخطوط ، ص ١١٧ وجه .  
(٧) نفس المخطوط ، ص ١٢٢ خلف .  
(٨) نفس المخطوط ، ص ١٢٦ وجه .  
(٩) نفس المخطوط ، ص ١٢٤ وجه ، ص ١٤١ وجه .  
(١٠) نفس المخطوط ، ص ١٢٨ وجه ، ص ١٣٨ خلف ، ص ١٤٢ وجه .  
(١١) نفس المخطوط ، ص ١٣١ وجه ، ص ١٣٣ خلف .

أما عن الأعداء فهناك صاحب أهنامس ، وحفناؤه من ملوك النوبة  
والبحار والبربر (١) ، والبطلوس ملك الهنة (٢) ، والبطارقة معهم  
القبيلة (٣) أي كما حدث في فتح العراق وقارس . وأما عسكرهم فعليهم  
الدروع المدهبة ، ولهم أقيّة الدياج والسيجان المكلفة بالآلئ والجوهر (٤) .

والى جانب الأعمال العجيبة والحوارق المدهشة ، هناك معلومات لها  
قيمتها العلمية مثل إقامة الفسطاط التي يسميها "المصر" (٥) كما سميت الكوفة  
والبصرة «المصران» . وهناك تعداد دقيق للقتلى من كبار المسلمين وعانئهم  
في المواقع المختلفة (٦) مما يجعلنا نتذكر دقة أصحاب السيرة وأهل الحديث  
عندما يصفون غزوات الرسول . كما أن هناك ربط مهم بين فتح القيوم  
وفتح الواحات وبرقة على يدى عقبة بن نافع (٧) يمكن أن يتخلص  
منها أن فتوح الأقاليم الجنوبية من برقة بدأت فعلا من ناحية القيوم .

ومقارنة مخطوط فتح الهنة والقيوم بمخطوط فتوح مصر للواقدي  
تمكنا ملاحظة أن فتح مصر يمثل مرحلة أولى من مراحل تطور الرواية  
التاريخية الى أسطورة أو قصة شعبية . ووجه الشبه كبير بين الروائين :  
فكما أن ناقل فتح الهنة تصرف في الكتاب فأضاف إليه إضافات كثيرة  
ربما غلبت على رواية الواقدي المصري ، كذلك فعل ناقل فتوح مصر  
للواقدي البغدادي ، وربما كان نفس «الراوى» . فبعض أبواب الكتاب  
تبدأ بكلمتى «قال الراوى» (٨) ، ولكن ذلك نادر عكس ما في فتوح

(١) نفس المخطوط ، ص ١١٢ وجه .

(٢) نفس المخطوط ، ص ١١٢ خلف .

(٣) نفس المخطوط ، ص ١١٥ خلف ، ص ١١٦ وجه وخلف ، ص ١٢٠ وجه .

(٤) نفس المخطوط ، ص ١١٢ خلف .

(٥) المخطوط (فتح القيوم) ، ص ١١٠ وجه .

(٦) نفس المخطوط ، ص ١١٩ خلف ، ١٢١ وجه .

(٧) نفس المخطوط ، ص ١٤٣ خلف .

(٨) مخطوط فتوح مصر ، ص ٣٠ خلف ، ٤٤ خلف ، ٤٧ وجه . وهنا نلاحظ أن المخطوط  
يقول عن ابن اسحق أنه «الراوى لغزوى رسول الله (ص ٢٢ وجه) . ولكننا لا نستطيع أن نفكر  
في أن المقصود بالراوى هنا هو ابن اسحق إذ يذكر باسمه في كثير من الأحيان . أما طبعة ليدن  
فتعمل مكان كلمتى قال الراوى كلمتى «قال صاحب الحديث» (أنظر ص ٢٠ ، ٣٢ ،  
٣٨ ، ٤١ ، ٨٨) .

الهنئة (١) . وهذا يفسر كثرة الروايات المنسوبة لغير الواقدي في المخطوط الأخير . أما في فتوح مصر فأشهر الرواة وأكثرهم ذكراً هو ابن اسحق ، ويذكر الى جانبه جعفر بن محمد (٢) ، والليث بن سعد ومن نقل عنه مثل نوفل بن عامر ويحيى بن شاعر المدني (٣) ، وذلك في مناسبات قليلة نسبياً .

أما أوجه الشبه من حيث الموضوع فتتلخص في أن بطل الفتح هو خالد ابن الوليد اذ يظن ذكره على ذكر عمرو (٤) . وهناك ذكر ليزيد بن أبي سفيان (٥) وكان يزيد كما نعرف قد توفي في طاعون الشام . هذا ولو أن الاسم ورد في مخطوط فتح الهنئة في شكل زياد بن أبي سفيان (٦) ، وزياد بن أبي سفيان بن عبد المطلب (٧) . وفي جانب الأعداء هناك ذكر للأرمانوس بنت المقوقس (٨) ، ولأخي المقوقس المسمى أرجانوس (أرمانوس) (٩) ، وابن أخيه رسطوبس (١٠) ، وزينى أخت مارية القبطية في دمياط (١١) ، وروبييل أو كيجانوس بن روبييل ملك برقة (١٢) . ولكل من هؤلاء دورة الغريب في قصة الفتح العجيبة .

- 
- (١) أنظر فيما سبق ، ص ١٣ هامش ١  
(٢) مخطوط فتوح مصر ، ص ٢٢ وجه ، ٣٦ خلف ، وقارن طبعة ليدن ، ص ١٢ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٧٣ ، ٨١ .. الخ . جعفر بن محمد هو جعفر الصادق ابن محمد الباقر سادس الأئمة الاثني عشر . كان من اجلاء التابعين وله منزلة رفيعة في العلم أخذ منه جماعة من المشاهير منهم أبوحنيفة ومالك وجابر بن حيان ، توفي جعفر الصادق في سنة ١٤٨ = ٧٦٥  
(٣) مخطوط فتوح مصر ، ص ٢٠ خلف ، ليدن ، ص ٣  
(٤) نفس المخطوط ، ص ٣٣ خلف وتابع ، ٣٦ خلف ، ٤١ خلف ، طبعة ليدن ، ص ٦٢ وتابع ، ص ٨١ ، ٨٩ ، ٩٣ .. الخ ..  
(٥) نفس المخطوط ، ص ٢٧ خلف ، طبعة ليدن ، ص ٤٤ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٧٦  
(٦) نفس المخطوط ، ص ١١٠ خلف .  
(٧) نفس المخطوط ، ص ١١٤ خلف .  
(٨) نفس المخطوط ، ص ٢٤ وجه ، ٢٦ وجه ، طبعة ليدن ، ص ٢٠ ، ٣١ ، ٣٢  
(٩) نفس المخطوط ، ص ٣٦ وجه وخلف ، طبعة ليدن ، ص ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣  
(١٠) مخطوط فتوح مصر ، ص ٣٧ خلف ، طبعة ليدن ، ص ٨٦ (ريتا) .  
(١١) مخطوط فتوح مصر ، ص ٤٠ وجه ، ٤١ خلف

وبعد هذا التعريف السريع بالخطوط الثلاث نرجع الى « فتوح مدينة افريقية » . ونبدأ بأول ملاحظة على العنوان ، فنرى أن المصنف يذكر في خطبة الكتاب أنه مختصر في فتوح افريقية من المهديّة الى أقصى المغرب . وهذا يعنى أن العنوان يذمى أن يكون « فتوح افريقية » أى نفس عنوان الكتاب الذى ينسب الى الواقدى وكما فى طبعة تونس ، أو أن يكون « فتوح مدن إفريقيا » فهو يتناول فتح عدد من المدن كما بينا فى محتويات الكتاب . هذا ولو أن المؤلف يذكر أن موضع القيروان هو المهديّة (١) . وهذا يعنى أنه قصد بفتح مدينة افريقية فتح عاصمة البلاد التى هى القيروان أو المهديّة حسب روايته . ووضع القيروان الى جانب المهديّة أو الخلط بين المدينتين يمكن أن يفسر تفسيراً معقولاً : فالقيروان كانت عاصمة المغرب منذ اتساقها سنة ٥٠ / ٦٧٠ الى أواخر العهد الأموى وعلى أيام عبد الرحمن ابن حبيب الفهري وبنيه ثم على أيام ولاة بغداد الى آخر أيام الأغالية - رغم أن الأغالية بنوا مدناً ملكية بالقرب منها مثل العباسة ورفادة . وبعد قيام الفاطميين فى إفريقيا اتخذوا لأنفسهم عاصمة جديدة على ساحل البحر هى المهديّة ابتداء من سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م . وأصبحت المهديّة رمزاً لاستقرار الفاطميين فى المغرب كما كانت القيروان رمزاً لاستقرار المسلمين فى البلاد فى أوائل الفتح . وهذا يفسر كيف أن المهديّة ظلت فى بعض الروايات المغربية المحلية رمزاً لاستقرار المسلمين فى المغرب - وخاصة فى أوساط أولئك الذين يحملون فى نفوسهم ميولاً واتجاهات شيعية - وعن هذا الطريق أمكن الخلط بين القيروان والمهديّة رغم ما بين المدينتين من اختلافات كبيرة .

وفىما يتعلق ببناء القيروان نجد أسطورة الوحوش والهوام التى هربت من الموضع بدعاء عقبة بن نافع ، وهى القصة التى يجعلها الكتاب كرامة من كرامات عقبة المستجاب . ورغم أن « فتوح افريقية » يورد هذه المعجزة إلا أنه يعطى ما يفسرها تفسيراً معقولاً نظن أنه أصل مبدئها التاريخي .

(١) خطوط فتوح افريقية ، ص ٢ و٤ ، قارن طبعة تونس ، ص ٣

فالموضع عندما اختير لبناء مدينة عربية كان كثير الأشجار والشعراء (١) .  
 فاقترح أصحاب عقبة احراقها أى الشعراء ، ولكن عقبة أشفق على دواب  
 الأرض الساكنة به أن تحترق فيحاسبهم الله فتنادى : « أيها الوحوش ارتحلوا  
 عندما انشاء الله تعلق ... ارتحلوا اننا أردنا أن نحرقها بالنار نريد ملجأ فيها ويسكنها  
 أصحاب عمدة - صلى الله عليه وسلم . فا تم كلامه حتى رفعت الوحوش  
 أولادها في أفواهاها مثل الغزلان والذئاب (٢) . وبناء على ذلك يمكن تفسير  
 خروج الوحوش والحوام فرقة من الشعراء كنتيجة للحريق الذي أطلق  
 في الموضع لتنظيفه قبل البناء . وهذا أمر طبيعي يحدث عندما تلتهم النيران  
 بعض الغابات فتفرغ حيواناتها ، وقد يفر بعضها وهو مشتعل فيتسبب  
 في زيادة الرقعة المنكوبة بالحريق . وهذا ما نظنه تفسيراً مقبولاً لأصل  
 الأسطورة (٣) .

أما الملاحظة الثانية فخاصة بصاحب هذا الفتح . والنص يقول :  
 « بما استنتجته أبناء أولادهم (أى الصحابة) - رضى الله عنهم أجمعين -  
 في زمان عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وأمر عليهم عقبة بن عامر ،  
 صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فينب الكتاب الفتح الى عقبة بن  
 عامر الصحابي ، وهو أبو حماد عقبة بن عامر الجهني الذي حضر فتح مصر  
 مع عمرو بن العاص (٤) ، والذي كان نائباً لعبد الله بن سعد بن أبي سرح  
 في ولاية مصر سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، عندما قامت الفتنة ضد عثمان والذي  
 آلت اليه ولاية مصر أيام معاوية من سنة ٤٤ الى ٤٧ / ٦٦٥ - ٦٦٧ (٥) .  
 وعقبة بن عامر الصحابي لا تعرف له غزوات في بلاد المغرب ، وإنما بطل

(١) مخطوط تشرح افريقية ، ص ٢ وجه (التقراءة في النص : الشام والكلمة غير موجودة  
 في طبعة تونس ، ص ٣) .

(٢) نفس المصدر .

(٣) قارن حسين مؤنس (فتح العرب للمغرب ، ص ١٤٤) الذي يفسر اضطراب الضواري  
 كنتيجة لخلية الجيش العربي الذي عسكر الى جوارها .

(٤) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٧٨

(٥) الكندي ، الولاية والقضاة ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٣ ، ٣٦ - ٣٨

فتوح المغرب هو عقبة بن نافع الفهري . ولصاحب الكتاب العذر كما لغيره من الكتاب الذين يخلطون بين عقبة الجهني وعقبة الفهري (١) . والسبب في ذلك أنهم يريدون لفتح المغرب أن يكون صحابياً — وهو في الحقيقة تابعي — بعد أن أضفوا عليه صفة الولاية حتى أصبح عقبة المستجاب (٢) .

ومسألة عقبة لا تنتهي هنا ، فالمؤلف يحدد وقت ذلك الفتح « في زمان عثمان بن عفان » وربما كان المقصود إذن هو عبد الله بن سعد بن أبي مروح ، واني مصر في ذلك الوقت ، وصاحب أول فتح في إفريقيا عندما انتصر على البطريق « جرجير » في سيطة غرب بعيد من موضع القروان في سنة ٢٧ هـ ٦٤٨ م . وكل هذا يعني أحد أمرين : إما أن الكاتب يقصد عبد الله ابن سعد بسبب التحديد الزمني للغزوة ، وإما أنه يقصد عقبة بن نافع بسبب موضوعها وهذا ما سنحاول تقريره فيما بعد . ولا بأس من البدء بالإشارة إلى أن الرواية تحتوي في تفصيلاتها على أحداث مبكرة ، وقعت في أول الفتح ، وأخرى متأخرة وقعت في القرون التالية .

ومع أن عقبة — ابن نافع أو ابن عامر إذا ساعنا الكاتب في مثل هذا الخطأ — هو صاحب الفتح إلا أننا نجد بطلاً روائياً يحجب عقبة تماماً ، وهو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (٣) . وخلف عبد الله بن جعفر يوجد الهاشميون آل بيته الذين يشا ركونه الحمد (٤) ، ثم سليمان بن خالد بن الوليد (٥) رغم أن مخطوط فتح الهند يذكر أنه استشهد قبل ذلك في اليوم بعد أن قام

(١) أنظر أبو العرب طبقات ، علماء إفريقية ، طبعة الجزائر ١٩١٤ ، ص ٩ .

(٢) أنظر البكري ، ص ٧٣ ، كتاب الاستبصار ؛ طبعة اسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٧٤ .

(٣) مخطوط فتوح إفريقية ، ص ٣ . وجه وخلف ٤ ، وجه وخلف .. الخ ، طبعة تونس ، ص ٦٤٥٤٤ .

(٤) أنظر مخطوط فتوح إفريقية ، ص ٧ خلف (عمر بن حمزة — تونس ص ١١) ، ص ٣٧ خلف (الفصل بن العباس — تونس ، ص ٥٥) ، ص ٣٩ وجه وخلف (عبد الله بن العباس — تونس ، ص ٥٧) .

(٥) مخطوط فتوح إفريقية ، ص ٣ وجه ، ٥ وجه ، ٧ وجه .. الخ ؛ طبعة تونس ، ص ٦٤٧٤٧٤٤ .. الخ .

بضروب من البطولة (١). وخلف سليمان ابن خالد قبيلته من بني مخزوم (٢)، وعلى رأسهم بطل آخر منهم هو رافع بن الحارث (٣). أما عن الأمويين فيظهرون في دور سلبي في هذا الفتح، والزراع قائم بينهم وبين المخزوميين والهاشميين (٤). أما عن قوات الأعداء فنجد صاحب المهديّة - وهو ابن الملك صاحب المعلقة وكبير ملوك المغرب - زوج ابنة صاحب رومة (٥). وبنت الملك لما دور منهم في الفتح (٦)، وكذلك ابن عم الملك (٧)، وزوجة الملك الكبير (٨).

ويسير الأمر على هذا المنوال في فتوحات المدن الأخرى من سوسة إلى سيبة وشقبارية وحيدرة وقعليلية وثبسة إلى قسنطينة وأخيراً المعلقة، ويكون للأميرات الروميات أدوارهن المثيرة مع فرسان العرب. وهنا تتحرف القصة بعيداً عن مجال الحقائق التاريخية، وتوغل في آفاق بعيدة من الأساطير والخرافات. وسنحاول أن نجد تعليقات لبعض هذه الانحرافات كما سنحاول أن نوضح مفاهيم بعض هذه الأساطير.

ونبدأ بأبطال قصة الفتح من الهاشميين فنجد معظمهم علويين، وعلى رأسهم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. وهذا يدل على أن صاحب الكتاب له نزعة شيعية معادية للأمويين وذلك معروف عن الواقدي. وتؤكد بعض التفاصيل الصريحة هذه النزعة. «فعقبه» عندما أراد أن يقسم الهاشميون وبنو مخزوم أنفسهم على القبائل في حرب سيبيّة -- ليوجد نوعاً من الترابط

(١) فتوح ابنة، المخطوط، ص ١٢٦ وجه (تلمث بين سليمان فتون الحيف يساره واستمر في القتال ..).

(٢) مخطوط نوح أفريقية، ص ٥ خلف، ص ٨ خلف، ص ١٠ وجه .. الخ، تونس، ص ٨، ١٣، ١٤ .. الخ.

(٣) نفس المخطوط، ص ٨ وجه، ٨ خلف، ١١ وجه؛ تونس، ص ١٢، ١٣، ١٦.

(٤) نفس المخطوط، ص ٥ وجه، ٤٣ خلف، ٤٨ خلف؛ تونس، ص ٧، ٦٤، ٧٢.

(٥) نفس المخطوط، ص ٢ خلف، قازن طبة تونس، ص ٣.

(٦) نفس المخطوط، ص ٣ خلف، تونس، ص ٥.

(٧) نفس المخطوط، ص ٩ وجه؛ تونس، ص ١٣.

(٨) نفس المخطوط، ص ١٦ خلف؛ تونس، ص ١٢.

بين القبائل - رفض الفضل بن العباس وقال له : « أنت أمير على الجيش ولا لك أمر علينا ، نحن أهل الخلافة ، ونحن وهبنا أنفسنا لله ورسوله ولعثمان بن عفان » (١). فرغم عدم صحة هذه التفضيلات فيما يتعلق بالأشخاص فإنها تعبر عن حالة التذمر التي وقعت أيام عثمان ، والتي تلخصت في نقد ومعارضة عماله ، والدعوة إلى أحقية علي في الخلافة . وهي هنا تنطبق على عبد الله بن سعد بن أبي مروح الذي ينسب إليه الكتاب الفتور وعدم الحماس للإسلام في أول أمره (٢) . ويتضح هذا الاتجاه العلوي أو الشيعي بعد ذلك بصراحة دون تمويه . فالنص يقول : إن «عقبة» عندما كتب إلى عثمان يطلب منه المشورة في وجهة الفتوح أكد له أن عبد الله بن جعفر هو صاحب الفتوح ، وأنه «مفتاح جيش المسلمين ، وكلنا صعب على المسلمين بتولاه بنفسه ، ولا يسير المسلمون إلا به ، فقله دره عماد الجيش» (٣) . ويقول إن عبد الله بن جعفر كتب هو الآخر ، ولكن إلى علي بن أبي طالب فأخبره بالفتح ، ووجه إليه الخطاب قائلاً : «وتعلم ياسيدي أن زوجة صاحب سنية قد أسلمت ، وهي بنت صاحب رومة ، وهي - سبحان الله ما خلق فيها من الحماة والكماة - وهي قد وهبت نفسها لك » (٤) . وبينما يرد عثمان على «عقبة» فيصحح بالآلا يفعل شيئاً أو يبرم أمراً إلا بعد استشارته عبد الله

(١) تروح أفريقية ، المخطوط ، ص ٣٩ خلف - والنص يختلف بعض الشيء في طبعة تونس (ص ٥٨) : « نحن أهل الخلافة ونحن وهبناها لعثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهبنا أنفسنا ورسوله فوالله ما لك علينا يد ولا نقاتل إلا منتمين » . والنص هنا يشير صراحة إلى شرعية مطالبة العلويين بالخلافة .

(٢) أنظر ابن عداري ، البيان المغرب ، طبعة ليدن ، ١٩٤٨ ، ص ٩ .

(٣) مخطوط تروح أفريقية ، ص ٦٦ وجه ، وقارن طبعة تونس ، ص ١٠٠ حيث تقرأ : « وهو عماد جيش المسلمين وكل ما صعب على المسلمين تولاه بنفسه ولا تبيض الوجوه إلا به فقله دره » .

(٤) مخطوط تروح أفريقية ، ص ٦٦ خلف (سبق أن تأملت الرواية أن زوجة صاحب المهدي هي ابنة ملك رومة - انظر فيما سبق ص ٢٢ وهامش ه ) ، وقارن طبعة تونس ، ص ١٠١ حيث يختلف النص بعض الشيء : « وهي حل غاية من الحسن والجمال سبحان الله أنشأها وصورها ، وقد آلت حل نفسها أن لا ينظر لوجهها أحد غيرك ، والسلام عليك ورحمة الله » .

بن جعفر (١) ، يصل كتاب علي بن أبي طالب بحمل أوامره الى « عقبه »  
 بوجهة الفتوح (٢) ، وكذلك الى عبد الله بن جعفر . وهو مخاطب هذا الأخير  
 فيسميه : « الولد المطيع ، الفارس المحلى ؟ ملة الاسلام من بني عبد المطلب  
 ويقول : « المرأة التي ذكرت لا يزوجها (بزوجها) أحد غيري ، فأنت  
 الوكيل عليها الى أن تبلغها لنا . وفي آخر الخطاب يطلب علي من عبد الله  
 بن جعفر - وهذا أمر غريب - كسوة لأقاربه ، ويغتمه بقوله « وابعث  
 لنا مائة دينار والسلام » (٣) .

هذه الكتب المنسوبة الى علي بن أبي طالب تعبر عن فكرة شعور علي  
 بأحقية في الخلافة - دون عثمان - بصفته عميد الأسرة الهاشمية ، كما تعبر  
 عن أنه مارس هذه الأحقية ، وخاصة بعد أن اضطرب أمر عثمان في أواخر  
 أيامه . أما النص الخاص ببنو صاحب سبيبة التي وهبت نفسها له فقد يعبر  
 عن موقف الشيعة المتساهل بالنسبة لذلك النوع من الزواج المؤقت ، المعروف  
 بـ « زواج المتعة » ، والذي يتم دون التمسك تماما بالشروط التقليدية المعروفة  
 للزواج . أما الملاحظة الأخيرة التي تسترعى الانتباه ، فهي تلقيب علي لعبدالله  
 بن جعفر - في المخطوط - بـ « الولد المطيع » : وذلك أننا نعرف أن كلمة  
 « الولد » كانت لقباً لولي العهد عند الأمويين في الأندلس (٤) . وهذا  
 يعني شيئين : أن الأثر الأندلسي أو المغربي واضح في الرواية - المشرقية  
 الأصل - كما أن توقيتها يرجع الى ما بعد عصر الفتوح بوقت طويل .

(١) فتوح أفريقية ، المخطوط ، ص ٦٨ وجه ٤ طبعة تونس ، ص ١٠٣ .

(٢) نفس المخطوط ، ص ٦٨ خلف . وهذا الخطاب غير موجود في طبعة تونس (أنظر  
 ص ١٠٣) .

(٣) نفس المخطوط ، ص ٦٨ خلف - ٦٩ وجه . ونص الخطاب في طبعة تونس (ص ١٠٣)  
 يختلف تماماً فهو يبدأ بـ : الى ابن أخي عبد الله بن جعفر سلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد ..  
 أمرك بتقوى الله وطاعته وإيائك ومواقف النفس .. أما عن القملة الأخيرة الخاصة بإرسال الكسوة  
 والنقود فهي لا توجد فيه .

(٤) أنظر ليفي بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) ، طبعة ١٩٤٤ ، ص ١١٣ ،  
 ص ١٢٨ .

وعبد الله بن جعفر يمثل المحارب البطل والغازي الذي يفتن النساء . هكذا افتنت به ابنة الملك الحميلة الأديبة - التي رفضت الزواج من كل امراء افريقية حتى « حلف أبوها على نفسه لا يزوجه الا من شئت » - وذلك عندما دخل عبد الله الى قصر الملك والدها رمولا عن عقبة (١) . وأنخفت بنت الملك فاتنها ثم خرجت معه من القصر سراً ، ووهبت نفسها له أمام أصحابه . وخرجت خيل الملك في طلبهم ، « ودارت بهم كدوران الرحي وهم في وسطهم كالشامة البيضاء في جنب البعير الأسود ، فلم يجدوا ملجأ يلجئون فيه الا الله عز وجل » (٢) . ونادى سليمان بن خالد: « الجنة ترخربنا ، وهي تحت ظلال السيوف » . وعندئذ لم يتخذ الموقف الا عمر بن حمزة بن عبد المطلب « فاتبعهم كالسباع في أثر الغنم » (٣) . وتقول هذه القصة إن كل هذا حدث وبنو أمية يرجون ألا يرجع من الهاشمين والمخزوميين أحد ، وعقبة - رضي الله عنه - لا يعلم من الأمر شيئاً ، ومع ذلك فانه قبل عذر جماعة المغامرین بعد عودتهم ، وأسلمت بنت الملك (٤) . وغضب ابن الملك وقال : « كيف يجرحكم زعاليك (صماليك) العرب ، أخرجوا اليهم وقتلوهم على الدين القديم ودينهم محدث » (٥) . ويقف الجيش الاسلامي في هيئة القتال ، ومع بني هاشم ١٢٠ راية ، ومع بني مخزوم ١٠٠ راية ،

(١) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٣ خلف ، قارن طبعة تونس (ص ٥) حيث يختلف النص بعض الشيء وهو : « وآلى أبوها على نفسه الا يزوجه الا من ارادت »

(٢) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٧ وجه ؛ وقارن طبعة تونس (ص ١١) حيث انص : رداروا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دوران الرحي وهم في وسطهم كالشامة البيضاء في جنب البعير الأسود ، فلم يجدوا ملجأ يلجأون اليه . ونلاحظ ان اصطلاح « فأصبحوا كالشامة لبيضاء في البعير الأسود » يرد أيضاً في فتح البصرة والفيوم (مخطوط فتح البصرة ، ص ١٣٥) .

(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٧ خلف . وجملة : فاتبعهم كالسباع في أثر الغنم « غير موجودة في طبعة تونس (أنظر ص ١١) .

(٤) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٨ وجه ، طبعة تونس ، ص ١٢ .

(٥) المخطوط ، ص ٨ خلف ؛ وقارن النص في طبعة تونس (ص ١٢) : « قال لهم : كيف يحاصرکم صماليك العرب ، اخرجوا اليهم وقتلوهم عن دين آبائكم ودين عيسى بن مريم »

بينما تتكون قوات حقبة من قبائل طيء ولخم وجذام وحير وغان (١) .  
أما جيش ابن الملك ففيه ألف طبل تضرب ، و ٣٠ صفا في مقدمتهم الصليان ،  
وبين أيديهم الأناجيل (٢) .

وقبل التقاء الجيشين بدأ النزاع بين الفرسان . وخرج ابن عم الملك  
وأسمه سباطور يطلب مبارزاً ، و « كان في جيبه مائة الف دينار ذهباً ، وبيده  
حجفة تساوي ألف دينار ، وحلة جواده كلها ذهب يتوقده » (٣) . ووقفت  
زوجة ابن الملك الأكبر هي وبنت الملك صاحب مدينة حيدرة في صف  
التصارى تعرض فارسهم على مبارزة عبد الله بن جعفر ، بينما وقفت زوجة  
هذا الأخير الرومية (بنت الملك الأكبر وأخت صاحب المهديّة) في صف  
المسلمين (٤) . وخرج كل من كان في المهديّة ، كبيرهم وصغيرهم ، ذكورهم  
وإناثهم ، حرهم وعبدهم ، ينظرون الى عبد الله مع صاحبهم . وخرج  
ابن جعفر وعليه « درعين داوديين ولامة حسنة لم يكن أحسن منها » (٥) .  
وضرب عبد الله خصمه « ضربة هاشمية » فقتله (٦) ، وثني بتأند آخر  
اسمه « ديلاق » ، ولم يزل يطلب منهم واحداً بعد واحد الى أن قتل منهم  
٨٠ فارساً (٧) .

(١) المخطوط ، ص ٨ خلف ، طبعة تونس ، ص ١٣ .

(٢) المخطوط ، ص ٨ خلف ، وقارن طبعة تونس ، ص ٣ (ثلاثون صفا ناقصة) .

(٣) المخطوط ، ص ٩ وجه ، وقارن طبعة تونس (ص ١٣) حيث يختلف النص ففيه :  
« وكان فارساً شديداً .. ركباً جواداً أصفر اللون ، وعليه حلة عجيبة ثمينة ، وكل ما حل جواده  
من الذهب والرواح » . فليس هناك ذكر لما كان يحمله من الثور ، ولا للحجفة (وهي الدرة) الثمينة .

(٤) مخطوط شرح إفريقية ، ص ٩ وجه ، قارن طبعة تونس ، ص ١٣ .

(٥) نفس المخطوط ، ص ٩ خلف . والدروع الداودية المذكورة في فروع البهنة (المخطوط ،  
ص ١١٠ خلف ، ١٢٥ وجه) ولكنها لا تذكر في طبعة تونس إذ يقول النص : « وركب  
عبد الله جواداً أبيض ، وليس ثياباً بيضا ، وجعل ثوب رسول الله صل الله عليه في قلب جسده ،  
وليس درعا كان جلده أي طالبه » .

(٦) نفس المخطوط ، ص ١٠ وجه ، وقارن طبعة تونس (ص ١٤) حيث تقرأ : « فحمل  
عبد الله عليه حلة هاشمية ، وطمع على حياتها فقسها نصفين ، فخر في الأرض ميتا » .

(٧) نفس المخطوط ، ص ١٠ وجه وخلف ؛ طبعة تونس ، ص ١٥ .

أما فارس بنى مخزوم : وهو رافع بن الحارث فقتل ١٢٠ فارسا ، وأخذ  
 لباسهم (١) . ولم يفعل بنو أمية شيئا رغم ما تكلم الناس به ، وما قالوه لهم :  
 « انتم المداد والأصل .. أخرجوا واحداً منكم يطلب البراز » وطلب عبد الله  
 ابن جعفر مبارزة ابن الملك الذي وافق رغم ما قاله أصحابه : « كيف تخرج  
 الى عربي راعي الأبل : ماله قدر ولا مروءة ولا حسب ، ولا هو معروف  
 بالامارة ولا بالمملكة » (٢) . وأسر عبد الله ابن الملك الذي فكت أخته  
 وثاقه ، وصحبتة الى المدينة : فأرجعها الى معسكر المسلمين محملة بالهدايا  
 العجيبة : « الف مطية محمولة بالخيز والحزير ، وعلى كل مطية الف دينار  
 ذهباً ، وألف خادم ، وألف أوقية من المسك ، وألف خاتم ذهب ، وألف  
 خاتم فضة » (٣) .

وتبدأ معادلات بين ابن الملك والمسلمين ويكون الدين موضوعاً من  
 موضوعاتها . ويخرج ابن الملك الأنجيل فاذا فيه صفات النبي ، فيدخل في  
 الاسلام سراً ، ولكن أهل المدينة عرقلوا أمره فلم يدخلوه (٤) .  
 وينتهي أمر المهديّة بدخول العرب ، ولكن عن طريق مؤامرة  
 حريم . فقد أرسلت زوجة الملك الأكبر عندما تحققت من صحة  
 الاسلام من القيس الأكبر . وأرسلت ١٥٠ امرأة روية الى العرب بحجة  
 ارجاع ابنتها وأخيها ، وكانت تضمّر أن يعود المسلمون في لباس الفتيات .  
 وفعلاً نجحت الحيلة ودخل المسلمون المدينة وهم في زي الروميات ثم فتحوا

(١) نفس المخطوط ، ص ١١ رجه ٤ وقارن طبة تونس (ص ١٦) وآخر النص فيها  
 « وأخذ عليهم » ، وهذا أصح من المخطوط .

(٢) نفس المخطوط ، ص ١١ خلف ٤ وقارن طبة تونس (ص ١٧) والنص فيها مختلف  
 بعض الاختلاف فيه : « كيف تخرج الى عربي راعي ابل لا شرف له ولا امانة ، ولا حسب  
 ولا نسب ، ولا هو معروف بمملكة » .

(٣) نفس المخطوط ، ص ١٢ خلف ٤ وقارن طبة تونس (ص ١٨) حيث نجد : « الف  
 مطية محمولة بالخيز » بدلاً من الخيز كما في المخطوط ، وهذا أرفق .

(٤) نفس المخطوط ، ص ١٥ خلف ٤ طبة تونس ، ص ٢١

الأبواب ، ودخل عقبه المدينة ، ومعه ابن الملك ، وبنى بها مسجداً (١) .  
وهكذا انتهت قصة فتح المهديّة بحمد الله وحسن عونه كما يقول المصنف (٢) .

والذي نخرج به من هذه القصة هو أن شرف الفتح جميعاً يرجع الى  
عبد الله بن جعفر الذي حجب قائد الحملة عقبه (ابن عامر) . وبطولة  
ابن جعفر في هذه الرواية العجيبة لا يوجد لها قرين في المصادر الأصيلة للفتح  
الا قصة عبد الله بن الزبير عند هزيمة جرجير أمير إفريقية الرومي وفتح  
سببلة سنة ٢٧ / ٦٤٨ . اذ تنسب هذه المصادر الى عبد الله بن الزبير  
وضع الخطة الحربية للمعركة النهائية – بأن أعد كميناً فاجأ العدو بعد أن  
أجهده القتال (٣) – ونضفى عليه من الأهمية ما لا تضفيه على قائد الحملة  
عبد الله بن سعد . والى جانب ذلك تظهر في هذا الموضوع – في المراجع  
الموثوق بها في تاريخ المغرب – مغامرة نساية غريبة : هي قصة أسر بنت  
جرجير الشابة الرومية التي كانت تتطلع الى ميدان القتال من فوق أسوار  
القلعة تحيط بها وصيفاتها . وقصة ابنة جرجير هذه أول قصص الحرم  
في أحداث الفتح العربية . فلقد أوردها ابن عبد الحكم مقتضبة فقال إن  
«ابنة جرجير كانت قد صارت لرجل من الأنصار في سهمه فأقبل منصرفاً  
قد حملها على بعير له ... » وانتهى أمرها بأنه ألتقت نفسها عن البعير فلدت  
عنتها فانت» (٤) . ولقد أشار ابن عبد الحكم بسرعة الى الدور الذي قام

(١) مخطوط فتح إفريقية ، ص ١٦ – ٢١ ؛ وقارن طبعة تونس (ص ٢٢ – ٢٩)  
التي تختلف في الألفاظ والتعابير كما هي عادة .

(٢) نفس المخطوط ، ص ٢١ خلف ؛ قارن طبعة تونس (ص ٢٩) حيث لا توجد هذه  
العبارة . ولكن طبعة تونس تزيد عن المخطوط أن المسلمين أقاموا سبعة أيام حتى احتفلوا بدمشوك  
عبد الله بن جعفر بابنة الملك ، وعلسوا الذين أسلروا أمور دينهم ، ثم تقم هذا بدعاء لقبه  
ابن نافع يقول فيه : « اللهم يامن لا يمانله موجود ويامن ليس له والد ولا مولود ، ويامن  
كل شيء عنده بأجل محدود نسألك وترجيه إليك ان تصل على سيدنا محمد وعلى آله عدد ما ذكره  
الذاكرون » .

(٣) بعض الروايات تنسب هذه الخطة الى رجل من القبط نصح بها عبد الله بن سعد  
(رياض النفوس للملكي ، ص ١١) .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٥ .

به عبد الله بن الزبير ، فقال عن جرجير : « وكان الذى ولى قتله فيما يزعمون عبد الله بن الزبير (١) . واستعمال ابن عبد الحكم كلمتى « فيما يزعمون » ثم عدم اشارته الى مصدر الرواية . على غير عادته - مما يشكك فى أصالة كل من الروایتين .

ونحن نرى أن الزبيرين هم الذين عملوا على اذاعة هذه الأجداد عن أسرهم فنسبوا الى عميد الأسرة الأول - الزبير بن العوام - فخر الانتصار في بابلون في مصر : كما نسبوا الى ابنه عبد الله - الذى بلغت الأسرة على أيام مطالبته بالخلافة أوج عظمتها - شرف الانتصار في سبيلته بأفريقية . وكثير من روايات ابن عبد الحكم وكذلك روايات الواقدي التى ينقلها البلاذرى وغيره من الكتاب ، وهى الروايات الخاصة بالزبيرين ، مستقاه من عروة بن الزبير الذى يأخذ عن طريقه ابن لميعة راوية ابن عبد الحكم (٢) ، ومن هشام بن عروة ، وهو من أشهر رواة الزبيرين أيام المنصور العباسى (٣) ، وكذلك من نافع مولى آل الزبير الذى ينقل عنه أسامه بن زيد بن أسلم ثم الواقدي (٤) . وهكذا ذاعت قصة عبد الله بن الزبير وأعماله البطولية ، كما ذاعت قصة ابنة جرجير : ووجد الكتاب فيهما موضوعاً خصياً للإثارة فجعلوهما موضوعاً واحداً ، وأضافوا اليهما التفاصيل الغربية : فبعد الله بن سعد أعلن أن من قتل جرجير فله ابنة . وبعد أن قتل عبد الله ابن الزبير جرجير أمسك عن اعلان ذلك تواضعاً أو ترفعاً حتى آلت الشابة الاغريقية الى بدوى من أهل المدينة حسب احدى الروايات والى عبد الله ابن الزبير - بعد أن دلت التتاة على أنه قاتل أبيها الذى فتنها بشجاعته - حسب رواية أخرى (٥) .

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٣ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٨٩ ، ١٦٤ ، ١٦٦ .

(٣) أنظر ابن عبد الحكم ، طيبة ليدن ، ص ١١٤ ، ١٨٥ .

(٤) البلاذرى ، طيبة ليدن ، ص ٢٢٦ .

(٥) أنظر المالكي رياض النفوس ، طيبة مؤنس ، ص ١٠ - ١٥ .

وهكذا بدأت الحقيقة التاريخية تتطور شيئاً فشيئاً الى أسطورة . فالزبير ابن العوام وابنه عبد الله كانا من أبطال الفتح وكانت لها أطرافهما من غير شك ، ووجود ابنة الأمير البيزنطي ووصيفاتها في القلعة أو القصر أمر يندفي ألا نشك فيه أيضاً . ولكننا نلاحظ أن قصة ابنة جرجير غير موجوده في روايات الواقدي التي ينقلها ابن عبد الحكم والبلاذري ، والمالكي صاحب رياض النفوس . وعندما تكلم ابن عبد الحكم والبلاذري عن مفاخر ابن الزبير ذكراها بشيء من الاختصار دون سند أو عن طريق الزبيريين أنفسهم . ثم تنفخ الرواة القصة وزخرفوها وزادوا في أجماد بظلمها الى أن بلغت الشكل الذي ذكرناه ، وذلك عند ابن الأثير (أوائل القرن السابع الهجري) ثم من نقل عنه من المؤرخين مثل النويري وابن عدي (١) . وإلى هذه المرحلة ظلت الرواية تحتفظ بشكلها التاريخي المقبول ، ثم إنها وصلت الى المرحلة التي غلبت فيها الأسطورة على الحقيقة التاريخية كما في فتوح إفريقية في قصة عبد الله بن جعفر وابنة الملك مع تغيير في الأشخاص - كما ذكرنا وكما سند كر - وذلك قبل أن تصبح مادة للاساطير الشعبية - التي يعرفها الغريون بالفلكلور كما في القصة الشعبية الشهيرة : ملحمة العرب الهلالية في المغرب أو قصة « أبو زيد الهلالى » .

وإذا وجدنا من يضحخم أجماد بنى الزبير كان من الطبيعي أن نجد من يتغنى بأجماد الأسرة العلوية ، ويحترع لآل البيت البطولات الشخصية . فعلى بن أبي طالب عرف بأنه فارس مغوار كما اشتهر بشجاعة تكاد تكون أسطورية ، وكذلك بنوه . فالحسين وهو مغلوب على أمره في كربلاء لم يفقد شجاعته فكان يشد على مهاجيه - الذين تداعوا أمامه - كما يشد الذئب في الغم ، كما يريد بعض الكتاب (٢) . وكان من الطبيعي أن تظهر أجماد الأسرة منذ وقت مبكر بفضل الكتاب من أصحاب الميول الشيعة مثل الواقدي والمعويدي وغيرهما ثم تجسست هذه الأجماد بعد أن نجح الشيعة في تكوين

(١) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٩٢ وهامش ٢ .

(٢) أنظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٩١ هـ .

دول لهم في المشرق وفي المغرب . ولقد كان للفاطميين أثرهم الدائم في المغرب الذي تمثل بصفة خاصة في مدينة المهدية عاصمتهم الأولى . فأصبحت المهدية رمز استقرار الشيعة في المغرب كما كانت القيروان شاهد استقرار المسلمين في البلاد . ونظر أصحاب الميول الشيعية الى قيام الدولة الفاطمية على أنه قيام للدولة الاسلام في المغرب وأذاعوه ، فاختلطت في أذهانهم مهدية عيد الله بقيروان عقبة . ثم نسبوا شرف الجهاد الى أبطال العلويين بدلا من من أبطاله الحقيقيين . فأصبح بطل الفتح عبد الله بن جعفر بدلا من عقبة (بن عامر) وهي تفصل في الحقيقة بدلا من عبد الله بن سعد . وهكذا تطورت قصة أول فتح عربي في افريقية وهي غزوة عبد الله بن سعد بن أبي مرزوق الى قصة خيالية رغم احتفاظها بمعالمها التاريخية . فأصبح فتح سيظلة هو فتح المهدية - والمقصود القيروان - ، وأصبح عبد الله بن الزبير هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وأصبح عبد الله بن سعد هو عقبة بن عامر - والمقصود عقبة بن نافع . أما ابنة جرجير التي فضلت الانتحار على الأسر فصارت بنت الملك التي فتت بعبد الله بن جعفر وعملت ووالدها الملكة على ادخال العرب الى المدينة .

وإذا لم يكن من الصعب تفسير تلك المفاهيم التي نسبت الى الهاشمين - وخاصة أن بعض رجالهم اشترك فعلا في غزاة عبد الله بن سعد مثل معبد بن العباس بن عبد المطلب الذي توفي بافريقية والذي يؤيد الواقدي الرواية التي تقول انه استشهد هناك (١) - فانه ليس من السهل تفسير ذلك الدور الذي نسب الى بني مخزوم ، وعلى رأسهم سليمان بن خالد بن الوليد ، ورافع بن الخارث . فليمان بن خالد سار نجدة لعبد الله بن جعفر عندما خرج من القصر مع بنت الملك (٢) . ولما لحقت الجماعة بهما اصططبت الاميرة الى قسطنطين رافع بن الخارث لأنه كان يصحب زوجته معه (٣) .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٨

(٢) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٤ خلف ، ٥ وجه ، قارن طبعة تونس ، ص ٦ - ٧

(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٨ وجه ، طبعة تونس ، ص ١٢

ورافع هو الذي بارز ابن عم الملك (١) ، وفلك بمائة وعشرين فارساً من فرمان العدو (٢) ، وهو الذي راسل ابن الملك يعرض عليه الاسلام أو الجزية أو القتال (٣) . وأخيراً تزوج رافع بنت ملك سيبية بأمر عبد الله بن جعفر (٤) .

ونستطيع أن نجد بداية تاريخية لأسطورة بني مخزوم هذه في قصة خالد بن الوليد زعيم المخزوميين . فخالد نموذج للفارس العربي في الجاهلية والاسلام . فهو بطل أحد ، وهو « سيف الله » في مؤتة ، وهو صاحب حرب الردة وهو صاحب الانتصارات الأولى في العراق ، ثم هو بطل اجنادين . وعلى ذلك فتاريخ جهاد خالد يمثل قصة مثيرة ، وخاصة بعد أن لقي شيئاً من العنت أو نكران الخميل من جانب عمر الذي ربما كان يحده أو يخشاه . وبينما جنى أصحابه وأبنائهم ثمرة كدهم وكفاحهم في شكل مكاسب سياسية ومنافع مادية ، انتهى خالد نهاية شبه مغمورة سنة ٢٢ / ٦٤٢ حتى أنه لا يعرف إن كان قد مات بحمص أو بالمدينة (٥) - وهي نهاية لا تتناسب مع أجماده وحسن بلائه . ولم يرث أبنائه عنه الا تلك السمعة وذلك الصيت الذي يثير شكوك أولى الأمر ويبعث الاشفاق في قلوبهم حتى أنه يقال إن معاوية دس السم لأبن خالد ، وهو عبد الرحمن عند عودته من حرب الروم سنة ٤٦ / ٦٦٦ (٦) .

وبطبيعة الحال لم يكن بنو مخزوم ليرضوا عن ذلك الجزاء القريب . ويعبر عن ذلك ما قاله عمر بن الخطاب لعمر بن حفص بن المغيرة عندما احتج على عزل خالد : « انك قريب القرابة ، حديث السن ، مفضلاً

(١) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٩ وجه ٤ ؛ طبعة تونس ، ص ١٣

(٢) مخطوط فتوح افريقية ، ص ١١ وجه ٤ ؛ طبعة تونس ، ص ١٦

(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ١٣ وجه ٤ ؛ طبعة تونس ، ص ١٩

(٤) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٢٩ وجه ٤ ؛ طبعة تونس ، ص ٤٠

(٥) أنظر مقال خالد بن الوليد في دائرة المعارف الاسلامية .

(٦) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٦

لاين عمك» (١) . ولم يكن أولئك الرجال الذين طالما قادهم خالد الى النصر ليرضوا عن ذلك . وهنا ربما التقى الهاشميون والخزرميون - عن غير قصد - من حيث الشعور بالغين ، والعداء لأولى الأمر من الأمويين . ولم يعد أولئك وهؤلاء الأتباع والأنصار الذين يتغنون بأمجادهم ويعرضون بخصومهم . وهناك نص يهنا في فتوح مصر والاسكندرية المنسوب للواقدي ، يبين كيف أن ابن اسحق - أقدم أصحاب المغازي والفتوح - أخذ وقائع عن فتح الشام ومصر « عن مشايخ ثقات وثق بهم من آل مخزوم » . ومن هؤلاء نوفل بن مشاجع الخزومي ، ابن عم خالد بن الوليد ، وكان من المعمرين ، ومنهم فهد بن عاصم بن عمرو بن سهيل بن عمر الخزومي (٢) . كما يذكر لنا « فتوح الهند » أن من رواه سلمة بن هشام الخزومي ، وكان ممن حضر الفتح (٣) . وعن طريق هؤلاء كما نظن نسب مخطوط فتح الهند والقبوم شرف الفتح الى خالد بن الوليد - الذي كان حينئذ بالشام - وجعله تحت قيادة عمرو ، كما جعل للهاشميين دورهم الى جانب خالد . أما في إفريقية فتعكس الآية ، ويصبح الهاشميون هم الأصل والخزرميون هم الفرع وكذلك الزبير وابنه عبد الله .

وبذلك يشترك في قصة الفتح أربعة أطراف :

١ - الولاة أو القواد ، وهم الموظفون الرسميون ويظهرون بمظهر الخالدين ، والى جانبهم العصبية الأموية صاحبة الدولة . وموقف الأمويين شبه سلبي .

٢ - الهاشميون .

٣ - الخزرميون ولم موقفهم الإيجابي في الفتح

(١) ابن حجر ، الإصابة في تمييز الصحابة ج ١ ، ص ٤١٤ ، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ، ج ١ ص ٢٢٨

(٢) أنظر طبعة ليدن ، ص ١٨ ، ١٩

(٣) المخطوط ، ص ١٢٩ وجه .

وهذا يعنى أن النزاع الياسى - أولا وقبل كل شئ - بين هذه الأسر الكبيرة، هو الذى أمل تطور الحقيقة التاريخية في ذلك الاتجاه الاسطورى المصطنع الذى أشرنا اليه ، وهو الذى أدى الى ظهور هؤلاء الأبطال الخرافيين في تلك المواقف المدهشة .

ومثل هذا الاتجاه يظهر أيضاً بالنسبة للمعلومات الخاصة بجمهرة المقاومة من العرب . ف « فتوح مدينة افريقية » يذكر أن القبائل التى كانت مع عقبة - من غير العصابات الكبرى السابقة - هي حبروغان ولخم وجذام وطيء (١) . وهذا يعنى أن القبائل اليمنية هي التى قامت بالنصيب الأكبر في تلك الفتوح . ونرى فعلاً أن قبائل حبر تحبل مركز الصدارة في هذا النص : فقوة عقبة التى كان عليها حماية النساء والأموال عند سبيته بلغ عددها الف رجل جلهم من « أخلاط العرب الا حبر » (٢) . وحبر هي التى حققت المغنم العظيمة - بينما كان النزاع على أشده بين الهاشميين والأمويين - من الذهب والحريير والمسك والفلفل . ولم يتأثر الحميريون بهذه المغنم بل قاسموا الهاشميين وأشركوهم معهم فيما غنموا (٣) .

والإصرار هنا على أن حبر هي صاحبة كل هذه الأفضال له مغزاه . فالمعروف أن عرب الشمال من العدنانية أو الزاوية هم الذين كان لهم مركز الصدارة في الفتوح الاسلامية الأولى بحكم أن الدعوة الاسلامية قامت في الحجاز ونجد أى في مواطنهم ، ومنهم قبائل قريش التى هي فرغ من مضر . أما اليمنية ومنهم حبر فكان لهم دور ثانوى . ومع أن أهل المدينة من الأوس والخزرج ينتسبون الى اليمن إلا أنهم كانوا أنصاراً أولاً وقبل كل شئ ، وكان لهم كيانهم الخاص . ولقد تغير هذا الموقف بعض الشيء عندما انتقلت الخلافة مع معاوية الى الشام : فاهتم معاوية بقبائل كلب اليمنية وصاهرهم ،

(١) المخطوط ، ص ٢ وجه ، ص ٢٨ خلف ، ص ٤٥ خلف ، ص ٧٦ وجه ، ص ٨٤

خلف ، طبة تونس ، ص ٥٥ ، ٥٧ ، ١١٤ ، ١٣١

(٢) نفس المخطوط ص ٣٠ وجه ؛ طبة تونس ، ص ٤٢ ( هنا يختلف النص بعض الشيء .

اذ يقول : « ومعهم ٣٠ ألفاً من أخلاط العرب ، وعرب حبر كلهم معه الا أيوهم حزام بن ضرار . » )

(٣) للس المخطوط ، ص ٤٩ خلف ، طبة تونس ، ص ٧٢ - ٧٤ .

ومال اليهم ابنه يزيد بصفتهم أخواله ، وقام اليمينيون بدور ميامي هام عندنا هزموا القيسية في مرج راهط سنة ٦٥ هـ وأكدوا ملك المروانيين . ولكنه رغم ذلك ظل الضوق للقيسية أى للعندانية في معظم الأوقات ، فكان منهم كبار العمال من رجال الحرب والادارة أمثال يزيد بن أبيه والحجاج وموسى بن نصير وقتيبة بن مسلم ونصر بن سيار . ولم تظهر اليمينية الا في أوقات قليلة كما حدث أيام سليمان بن عبد الملك بفضل المهليين . ولهذا وقفت اليمينية موقف الحزب المعارض من الدولة الأموية على أواخر أيامها ، واشتركوا في التآمر على الوليد بن يزيد وقتلوه كما تحالفوا مع دعاة العباسيين .

وهنا نجد تشابها بين موقف اليمينية وبين موقف الهاشمين من الدولة الأموية من حيث أن كلا من الجماعتين وقف موقف المعارضة . ولما كان من الطبيعي أن كلا من الطرفين لم يتم بدور رئيسي في تأسيس الدولة العربية الكبرى وإدارة أمورها ، لم يكن من الغريب أن يلجأ الى تعويض ما كانا يتمنيانه وأفتقدها في واقع الأمر ، عن طريق تحقيقه في عالم الخيال . وهكذا فعل اليميني وأنصارهم - كما فعل الهاشميون وأشباعهم - ففسبوا لأنفسهم الأجداد وعظائم الأعمال في العصر الاسلامي الأول . واستغل اليميني ما كان لهم من المنك والشهرة قديماً ، ووسعوا رقعة هذه الأجداد بشكل عجيب في عصور ما قبل الاسلام وخاصة عصور مملكة حير (١) . وامتلاً تاريخ اليميني القديم بالأساطير التي تناقلها الكتاب فيما بعد والتي تنسب الى اليمينية القيام بأعمال خارقة . فاذا كان العرب وخاصة العندانية منهم قد قاموا بفضل الاسلام بتلك الفتوح الكبرى من حدود الصين الى حدود الفرنج ، فان اليميني حققوا في القديم فتوحاً لا تقل عنها ان لم تزد . فهم فتحوا العراق وفارس وخراسان والهند والصين شرقاً ثم مصر والمغرب والأندلس وأرض الفرنج غرباً (٢) ؛

(١) أنظر جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ص ٤٣ - ٤٤ ؛ سيدة الكاشف

مصادر لتاريخ الاسلام ، ص ٢٧ ، ٢٨

(٢) أنظر أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، طبعة القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢١ - ٢٤

وهذا ما كان موضع نقد ابن خلدون في مقدمته (١) . وكان من الطبيعي ألا يقف اليمن بأجدادهم عند عصور الجاهلية . فواصلوا نسبة أمثال هذه الأجداد لهم في الاسلام ، كما في «فتوح افريقية» . فلقد نسب فخر فتح المغرب فيه الى قبائل اليمن ، واختصت حير منها - وهي قبيلة الملوك القحطاني - بدور البطولة . وهذا قد يفسر أيضاً كيف انتسبت بعض الجماعات المغربية الكبيرة الى حير مثل قبائل صهاجة القوية التي غلبت على المغرب لمدد طويلة . فالنصوص تشير الى أن الصهاجيين كانوا يفتخرون بأنهم ، ورثوا ملكهم عن آبائهم حير (٢) . واذا ما عرفنا أنه لا يوجد ذكر هام لقبائل اليمن ولا لحير في الحملات الأولى على المغرب ، مثل حملة عبد الله بن سعد بن ابي سرح التي يمدنا الكتاب بتفصيلات دقيقة عن تكوينها (٣) ، أدركنا أن أجداد اليمن والحيريين هذه من صنع مؤرخيهم وروايتهم ودعواتهم . والحقيقة أنه كان في ذلك تعويض لليمن عن بعض ما فاتهم في صدر الاسلام ، كما كان فيه لإرضاء لشعورهم بأنهم أعرق العرب وأكثرهم أصالة .

وبذلك تكاملت عناصر قصة فتح افريقية المنسوبة للواقدي ، وتتكون من القائد (عقبه) وله دور غير فعال في الجهاد ، والى جانبه الأمويون أصحاب الدولة وموقفهم سلبي أيضاً . أما أبطال الفتح فهم الهاشميون والمخروميون والزبيريون ، والى جانبهم الحميريون وهم جبهة المقاومة . وفي الجانب المعادي هناك ملوك البلدان المختلفة برؤايتهم وكنوزهم العجيبة ، ومنهم من آمن برسالة الاسلام ومنهم من لم يؤمن ، والى جانبهم يمنهم ومنهم من افتتن بشباب العرب وسهل لهم الفتح ، ومنهم من وقفن معاديات كيداً لها تزن الأجيال . واقد وجدنا أن قصة فتح مصر والامكندرية وكذلك فتح الهند والنيوم تحتويان على نفس العناصر ، وتشتركان في نفس الصور ، ونفس «السيناريو» مع تغييرات طفيفة امتثلزها الموقف . ويمكن أن نستنج من ذلك أن الروايات

(١) ابن خلدون ، المقدمة طبعة التجارية . باب فضل علم التاريخ وتحقيق مآذيه ، ص ١٢

(٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٤ ؛ ابن حذاري ؛ طبعة بيروت ، ج ١ ص ٣٤٣

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ وتابع ؛ وأنظر مؤنس ، فتوح العرب في المغرب ، ص ٨١

الثلاث نابعة من مصدر واحد . ونسبة هذه الكتب . في شكلها الراهن - الى الواقدي أمر يشوبه الشك ، وهذا متفق عليه . فالواقدي مؤرخ محدث ، من ذلك الرعيل الأول الذي أقام علم السيرة والحديث مثله مثل ابن اسحق وابن هشام ، رغم ما يرى به من ضعف الأحاديث ، وهذا أمر يشترك فيه مع ابن اسحق . وتقدير قيمة الواقدي الصحيحة - كثورخ ومحدث - تأتي عن طريق تقدير كتابه في معازي الرسول الذي وصل إلينا سليماً ، وكذلك فيما نقله عنه من الروايات ثقات كتاب السيرة والأحاديث مثل كاتبه ابن سعد صاحب الطبقات ، وما نقله المؤرخون الأوائل مثل ابن عبد الحكم والبلاذري والطبري ، وهي روايات تنسب بالطابع العلمي الصادق . هذا ولو أن بعض المؤرخين يضعف من روايات الواقدي التاريخية - كما ضعف المحدثون أحاديثه : فالطبري يسبق الروايات التي ينقلها عنه بكلمة « وزعم الواقدي » في أحيان كثيرة (١) . ولكن إذا كانت فتوح إفريقية وفتوح مصر وفتوح الهند ، تتصف بتلك الصفة الأسطورية التي لا تتفق مع روايات الواقدي المعروفة ، فهذا لا يعني أنها ليست له أصلاً . فالمعروف أن الواقدي كتب في معازي هذه البلاد وفتوحها ، وينقل عنه معظم الكتاب . ونرى أن هذه الكتب للواقدي أصلاً ولكنها تطورت الى الشكل الذي أصبحت عليه في الظروف التي حاولنا تفسيرها . أما عن توقيت ذلك التطور فأمر صعب يتطلب الى جانب النظر في كل المخطوطات ومعرفة تواريخ نسخها الصحيحة ، وجود نسخ منها من فترات متتالية مختلفة حتى يمكن معرفة الزيادات والحذف الذي كان بطراً عليها .

ونستطيع أن نقرر ابتداءً أن روايات الواقدي أخذت شكلها الأسطوري هذا في وقت متأخر نسبياً بعد القرن السابع الهجري (١٣ م) . والدليل على ذلك تلك الشخصيات التي يذكرها مخطوط فتح الهند مثل «سيدى أبو مدين»

(١) أنظر الطبري على سبيل المثال ، أحداث الصراع بين العرب والروم : سنة ٥٢ (زعم الواقدي ..) : سنة ٩٢ عن نوح الأندلس (زعم الواقدي) وهذه الرواية لها طابع المبالغة وعدم الدقة : فلك الأندلس اسمه الأندلسي ، وهو من أصهبان ، وزحف للعرب في سرير الملك وعليه تاجه وتمارزه .. الخ ..

الذي توفي في أواخر القرن السادس الهجري، و«سيدى أبو الحجاج الأتصري» المتوفى في منتصف القرن السابع. وهنا نعتقد أن انتشار حركة الطرق الصوفية، واهتمام الناس والكتاب بحياة الزهاد والصالحين، وعنايتهم بكراماتهم ومعجزاتهم - وهي سمة عصور الضعف والأضمحلال التي نقلت الناس من عالم الحاضر المؤلم إلى عالم الخيال السحري -، كانت لها آثارها في تطور الروايات التاريخية وحشوها بالخرافات والكرامات. ولما كان كبار الزهاد والصالحين هم النماذج المثالية في أعين أهل هذه العصور، وجب إدخال كثير من أبطال صدر الإسلام في نفس «الطريق». وهكذا نجد حشداً منهم من رجال السياسة والحرب والإدارة في كتب طبقات الصوفية. والمثل لذلك على بن أبي طالب وبنوه، والزيبر بن العوام وابناه عبد الله وعروه، وطلحة بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيد بن الجراح، وعبد الله بن عباس وغيرهم (١). ولما دخلوا في «الطريق» وجب أن تكون لهم أعمالهم المخارقة وكراماتهم كما تصورهما الخيال الشعبي في الروايات التي رأيناها.

والى جانب الأثر الصوفي الشعبي المتأخر، تأثرت الرواية التاريخية هنا بأحداث تاريخية متأخرة كانت لها آثارها العميقة، في خيال الناس. ففي قصة فتوح إفريقية نجد مراحل الفتح تسير من المهديّة (سيطة) إلى سوسة وسيبة وسقنارية وحيدرة وقسطيلية وثبسة وقطنية وتنتهي عند المعلقة. وتلاحظ أن كثيراً من هذه المدن ليس لها ذكر ذو بال في الفتوح الأولى، أو ليس لها ذكر إطلاقاً. فسوسة ليس لها ذكر إلا في حلة معاوية بن حديج الذي سير إليها عبد الله بن الزبير فاستولى عليها (٢). وفي مخطوط فتوح إفريقية استبدل بابن الزبير - كما رأينا - عبد الله بن جعفر. ولكننا لا نجد أية إشارة إلى مغامرات نسائية كذلك التي حدثت في سيطة. هذا ولو أن هناك ذكراً لامرأة من العجم اتقت بعد الملك بن مروان، عندما شد

(١) أنظر تراجم هؤلاء في كتاب الطبقات لشعراى.

(٢) أنظر حسين مؤنس، فتح العرب شمرو، ص ١٢١ والمراسم.

عن الجيش في غزوة ابن حديج - ولكن في بنزرت وليس في سوسة -  
فقرته وأكرمت منواه ، فرد جميلها عندما ولي الخلافة (١) .

أما عن سببية فلا ذكر لما اطلاقا في الفتوح الأولى رغم أنها كانت من  
القلاع القريبة من القيروان مثل جاولاء التي استولى عليها عبد الملك بن مروان.  
ولكن فتوح افريقية يجعل من فتح سببية قصة جهاد طويلة أنجز العرب فيها  
كثيراً من الأعمال ، ولقوا فيها كثيراً من المتاعب : فالقوات المعادية التي  
بلغت ١٨٠ ألفا اصطدمت بقوات العرب التي بلغت ٤٠ ألفا بقيادة ابن جعفر  
بينما كان عقبة في الخطوط الخلفية يقوم بحراسة النساء والبنات والأموال  
ومعه ٣٠ ألفاً من أنحلاط العرب . وعلى غير العادة أصيب العرب بصدمة  
عنيفة عندما فاجأ الأعداء عقبة «وأخذوا النسوة عن آخرهم وملكوهم» (٢) .  
والحقيقة أن أهم الأحداث التي عرفتها سببية في تاريخ المغرب العربي ،  
هي الوقعة الكبيرة التي حدثت في سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م بين العرب المالكية  
من بني رياح وبين الصهاجيين من بني حماد ، والتي انتصر فيها المالكية .  
وكانت وقعة سببية هذه حاسمة إذ أكدت استمرار المالكية بالمغرب ، وجعلت  
بني حماد يتقلون عاصمتهم من القلعة الى مدينة بجاية . والحقيقة هنا تخالف  
ما في القصة إذ انتصر العرب على خصومهم . أما الوقعة التي تذكرنا  
بهزيمة العرب في سببية وتركهم ناسهم وذرائعهم أسرى بين أيدي الأعداء  
كما في القصة فهي الوقعة التي انهزم فيها العرب المالكية أمام قوات الموحدين  
بقيادة عبد المؤمن بن علي في سنة ٥٥٥ هـ / ١١٥١ م ، ولكن في سطيف  
من أرض الجزائر وكيس في سببية من أرض تونس . ولقد قسم عبد المؤمن  
بن علي أموال المالكية على رجاله ونقل نساءهم وذرائعهم الى المغرب الأقصى  
ولم يردهم الى ذويهم الا بعد أن قيل هؤلاء الاستيطان في البلاد المراكشية (٣).

(١) أنظر حسين طونس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٥ والملاحز ١

(٢) مخلوط نوح افريقية ، ص ٣٠ خلف .

(٣) ابن الأثير ، أحداث سنة ٥٥٤ ، ج ١١ ص ١١٠ - ١١١ - وأنظر

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie du XI<sup>e</sup> au XIV<sup>e</sup> ss., pp. 148 - 150.

وبناء على ذلك نعتقد أن قصة فتوح سيبية تحوى بذوراً من ملحمة الهلالية في المغرب ، وكذلك الأمر بالنسبة لفتح حيدرة ، والمعلقة . فمبياً يختص بحيدرة لا نجد مدينة في المغرب تعرف بهذا الاسم . ولكننا نعرف جيلاً يقع على مسيرة يوم من القيروان يعرف بجبل حيدران . ونظن أن اسمه تغير في قصتنا الى حيدرة - وهذا أمر ليس بغريب ففي كتاب ابن الأثير نقرأ الاسم جندران (١) . وجبل حيدران هذا شهد أول الأحداث الهامة في ملحمة الهلالية . وذلك أن العرب من بني رياح حققوا بجزائره انتصارين هامين على الصنهاجين أصحاب القيروان ، رغم قلة عدد العرب وكثرة خصومهم . ولقد تغنى شاعر بني هلال بهذا النصر فقال :

ثلاثة آلاف لنا غلبت لهم ثلاثين ألفاً أن ذالكال (٢) .

وفيما يتعلق بالمعلقة لا نجد بلداً يحمل هذا الاسم في المغرب . والذي عرفناه هو أنه بعد انهزام بني حماد أمام الهلالية في وقعة سيبية نقل الحماديون عاصمتهم من القلعة - الموجودة في الداخل والتي كانت تحت رحمة الهلالية - الى مدينة بحماية الساحلية . وبحماية في منطقة جبلية وعرة يصعب الوصول إليها ، ولهذا السبب عرفت بأنها معلقة (٣) ، ونعتقد أنها المقصودة فعلاً رغم وجود قصر من قصور قرطاجنة يعرف بالمعلقة (٤) .

كل هذه قرائن يمكن أن تؤيد ما نريد أن نذهب إليه من أن قصة «فتوح أفريقية» - في آخر أشكالها وكما رأيناها - تحوى أيضاً بذور قصة الهجرة الهلالية الى المغرب التي دارت خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين . والحقيقة أن ملحمة الهلالية التاريخية في المغرب حوت عناصر شبيهة بعناصر فتوح أفريقية . فمبياً العرب الهلالية ومنهم بنو سليم ، وهؤلاء اشتركوا في أول

(١) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٤٢ ج ٩ ص ٢٣٦

(٢) نفس المصدر .

(٣) أنظر كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، طبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص

١٣٠ (وبحماية معلقة في جبل وقد دخل في البحر يسمى سيون) .

(٤) كتاب الاستبصار ، طبعة الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١٢٢ والمباش ١

فتح لافريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان لهم ٤٠٠ رجل في غزوة سيطة (١) . وفيها الحميريون رغم أنهم كانوا في صفوف الخصوم أي الصنهاجيين الذين انتسبوا الى ملوك حمير من اليمن ، وفيها الروم أو الفرنج وهم الصقليون الذين كانوا يهددون سواحل المغرب في ذلك الوقت والذين حاربهم الهلالية في أكثر من موقعة كما حدث في المهديّة (٢) . وفيها بنات الملوك من الأميرات الصنهاجيات اللاتي قمن بأدوار سياسية هامة مثل السيدة أم ملال عمة المعز بن باديس (٣) أو اللاتي أعطين كزوجات لزعماء بني هلال اكتسابا لودهم ودفعاً لشهرهم (٤) . أما عن كنوز المغرب على أيام الصنهاجيين فلا شك أنها بهرت الهلالية كما سبق أن بهرت خيرات وكنوز البلاد عرب التفتوح الأولى ، فالكتاب يبالغون في وصف ثراء المغرب وغنى الصنهاجيين الى درجة كبيرة : فالأمراء كانت لهم عمائم مرصعة كالتيجان ، وجهاز عرس بعض الأميرات بلغت قيمته ألف دينار ... الخ (٥) .

وبطبيعة الحال هناك أحداث أخرى في «فتوح افريقية» يستلزمها الإشارة الى أحداث هامة وقعت في تاريخ المغرب خلال العصور المختلفة . ولكن أهم خاصتها هي الخاصة بفتوح العرب الأولى التي امتزجت بفتوح عرب الدفعة الثانية الكبرى ، وهم عرب بني هلال . ولقد امتزجت عناصر الحداث التاريخية الهامين اللذين أثارا الخيال الشعبي ، واتخذتا شكلهما الأسطوري في الظروف التي حاولنا تفسيرها . وآخر ما نريد أن نشير اليه هو أننا نرى أن هذه الرواية الأسطورية كانت مرحلة هامة في تطور أحداث المغرب التاريخية الى أسطورة شعبية لحما ودما هي ملحمة الهلالية المعروفة بقصة

(١) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٨١ هامش ٢

(٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٨١ ، ج ١٠ ص ٦٨

(٣) ابن عذاري ، طيبة ليدن ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢

(٤) ابن خلدون ، الجبر عن دخول العرب من بني هلال وسليم المغرب ، ج ٦

ص ١٤ - ١٥ ؛ والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٣٤ ، ج ٢ ص ٢١ والهاشم .

(٥) الاستبصار ، ص ١٢٩ ، ابن عذاري طيبة ليدن ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٢٧٢ .

ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٧٠ ، ج ١٠ ص ٤٤

« أبو زيد الهلالي » (١) . فالحقيقة أن عناصر القصة الشعبية تشترك مع قصتنا في كثير من أوجه الشبه : ففى صفوف العرب اخلالية نجد رئيسهم السلطان حسن يقف موقفاً شبيهاً سليبي ، بينما البطل الأكبر هو أبو زيد سلامة وائى جانبه عدد من فوارس زغبة ورياح وسليم . أما العرب الحميريون فهم الزناتية وزعيمهم الزناتى خليفة بن سميح بن حمر وعدد من الأبطال ، وأما بنات الملوك فهن فى الجانبين جميعاً بدلاً من الجانب المعادى فقط : فنجد الخازية أخت السلطان حسن فى جانب الهلالية ومعها بنات العرب الحميلات فى ملابس الحرير وحلى الذهب والفضة ، وفى جانب الزناتية نجد سعدة بنت ملك العرب التى فتنها مرعى الالى ، وهو فى سجن أبها . وأخيراً هناك اليهود والنصارى أيضاً فى صفوف الخصوم (٢) .

هذا فيما يتعلق بالعناصر الرئيسية أما عن التفاصيل فهناك أوجه شبه أيضاً . فالسند فى قصة اخلالية هو « الراوى » الذى يتكرر ذكره كل فقرة أو مقطوعة شعرية . ثم نلاحظ عنصر التهويل كوصف الفارس بالحيل ومقارنة ارتطام الفارسين بارتطام جبلين ، وضربات السيوف والرمح التى تشق الخنوب وتخرق الصدور والظهور ، ثم المغامرات النسائية التى سهلت فتح أبواب الحصون الموصدة .

هذه العناصر وتلك التفاصيل التى تتوالى وتكرر فى شكل رتيب ، وتكون عناصر ملحمة اخلالية الشعبية نجد أشباهها فى فنوح افريقية والبهنة ومصر التى كانت موضوع بحثنا ، وهذا يؤيد ما أردنا أن نذهب اليه من أن كتب الواقدي العلمية أخذت تتطور مع مرور الوقت حتى انتهى بها الأمر الى الشكل الذى وجدناه عليها الآن ، وأن هذا الشكل هو الذى استمد منه أصحاب الملحمة الهلالية الشعبية عناصر قصتهم .

(١) من السيرة الهلالية أنظر درامة الدكتور عبد الحميد يونس ( الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى ) القاهرة سنة ١٩٥٦ . ومناقشة عن السيرة بنى هلال . فى سلسلة تراث الانسانى ، المجلد الأول ، ص ٣١٧ - ٣١٩ .

(٢) أنظر سيرة العرب المجازية (وهو مختصر لقصة الهلالية) ، طبع الإسكندرية (الشمس) بعون تاريخ : عن السلطان حسن أنظر على سبين أمثال ص ٥ - ٦ - ١٦ ، وعن ابى زيد الهلالي ص ٥٠ - ٦٠ ، ٧٠ ، ٢٣ ، وعن الحميريين لزناتية ص ٣٩ ، ٢٩ ، ٥٦ ، وعن الخازية أخت السلطان حسن وبنات العرب ص ٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٣ ، وعن سعدة بنت ملك العرب وبنات زفاته ص ١٤ ، ١٥ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥١ ، ٨٩ ، ٩١ ، وعن سبب الأهل والدة سعدة ص ١٠٣ - ١٠٤ ، وعن اليهود والنصارى أعداء الهلالية ص ٤١ ، ٤٣ .